

الصداقة والصديق

التوحيدي


الصداقة والصديق
التوحيدي



الصداقة والصديق

التوحيدي

BJ1533.F8 A284 2014
أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد، ق. 10 .
الصداقة والصديق/ أبوحيان التوحيدي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.- أبوظبي:
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 978 – 9948 – 17 – 348 – 9
1 . الصداقة. 2. الصداقة -- الشعر. أ. الشيخ، خليل. ب.العنوان.
ج.السلسلة.

إعداد :
د . خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

المقدمة

ليس غريبًا أنْ يكتب أبو حيان التوحيدي (414 هجرية) كتابًا في الصّداقة والصّديق، فكتابة التوحيدي في هذا الموضوع تكشف عن أمرين مهمَّين، أمّا الأمر الأول فيتمثّل في ثقافة التوحيدي الواسعة. فقد كان الرجل واحدًا من كبار المثقّفين في تاريخ الثقافة العربية، وأمَّا الأمر الثاني فيتمثل فيطبيعة حياته التي عاشها، والتي كانت تنطوي على قَدْر كبير من الفقر والألم والمعاناة.

وإذا كان الأمر يتطلَّب قَدْرًا من التّفصيل فإنّ من الضروري أنْ يُشار إلى أنَّ الحديث في هذا الموضوع الدَّقيق يتطلّب قَدْرًا كبيرًا من المعرفة الفلسفية التي كان التوحيدي متضلّعًا منها، كما يتطلَّب أسلوبًا قادرًا على التعبير الدَّقيق عن مسائل هذا الموضوع الذي يجمع بين الوجداني والعقلي فهو "أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء".وهنا ينبغي أنْ نشير إلى أنَّ التوحيدي يمثّل الذروة الأخرى بعد الجاحظ في ميدان الكتابة النثرية.فكتابته تتَّصف بالجمال والدِّقة وتنطوي على حمولات معرفيّة متنوعة اعتاد التوحيدي أنْ يعبَّر ببلاغة رفيعة عنها.

ومن جهة أخرى فإنَّ التوحيدي يَصْدُر في كتابته عن هذا الموضوع عن تجربة قاسية ومعاناة كبيرة، فقد كان - وهو الأديب الكبير- يعيش حياة صعبةتجعله ينتمي إلى فئة الهامشيين الذين يشعرون بالاغتراب، ويستشعرون العزلة داخل مجتمعهم، يقول التوحيدي:

"وقبل كلّ شيء ينبغي أنْ نثق بأنَّه لا صديق، ولا مَن يتشبّه بالصديق، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الدِّين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبتُ الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنباً، ولا ستروا لي عيباً، ولا حفظوا لي غيباً، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا

لي عَبْرة، ولا قبلوا مني عذرة، ولا فكوني من أسْرَة، ولا جبروا منِّي كسرة، ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشّغل بهم تضييعاً للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرعًا للغيظ مع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات بعد الهنات".

والحق أنّ جميل بن مرة لم يقل هذا الكلام وحده، بل قاله التوحيدي وفعله أيضا. فقد قال في كتابه الذي نحن بصدده:

"قد فقدتُ كلَّ مُؤْنس وصاحب، ومرافق ومشفق، ووالله لربما صلّيت في الجامع، فلا أرى جنبي مَن يُصلي معي، فإنْ اتّفق فبقّال أو عصّار، أو ندّاف أو قصّاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النّحلة، غريب الخُلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصّمت، مُلازماً للحيرة، محتملًا للأذى، يائسًا من جميع مَن ترى".

لقد وصف التوحيدي الغريب غير مرة في أدبه، ولم يكنْ يصف، في واقع الأمر، سوى غربته التي جعلته شخصًا نافرًا، لا يثق البتَّةَ بالآخرين ويسعى إلى تجنّبهم. ولهذا كان التوحيدي يعود صفر اليدين في كلّ مرة اتّصل فيها بكبار عصره، من أمثال ابن العميد والصاحب ابن عباد والوزير المهلّبي. باختصار كانت حياة التوحيدي تعكس إحباطات دائمة وإخفاقات متواصلة. فصار التوحيدي، على عِلْمه وثقافته وذكائه، أو ربما بسبب من ذلكسوداوي المزاج، قريبًا من الشخصيّة العصابيّة، لهذا كان من الطبيعي أنْ يفرّ من هذه الظروف القاسية إلى رحاب التجربة الصوفية.

لكنّ التوحيدي لم يكن قادرًا على الانغماس في آفاق التجلّيات الصوفية ـ نظرًا لاعتزازه بذاته ـ لهذا كان من المتوقّع أنْ ينتهي في أخريات عمرهإلى ما انتهى إليه، وهو إحراق كتبه. فقد جمع التوحيدي، ذات لحظة يائسة، كتبه وأقدم على إحراقهاوكتب رسالة مؤثرة يعلّل فيها هذه الفعلة التي تعدّ بمثابة الانتحار الفكري، لأنّ التوحيدييريد بذلك أنْ يقطع صلته بالمستقبل، بعد أنْ قطع صلته بالحاضر.فعندما كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يَعْذِله على فعلته الشنعاء، ردَّ التوحيدي يقول:

"فشقّ عليّ أنْ أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفّحوها، ويتراؤون نقصي وعيبي من أجلها، فإنْ قلت ولم تسمهم بسوء الظن، ونقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أنّ عياني منهم في الحياة هو الذي يحقّق ظنّي بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدِّين والمروءة، وإلى تعاطي الرّياء بالسمعة والنّفاق، وإلى ما لا يُحسن بالحر أنْ يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخافٍ عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبّعك وتفرّغك، وما كان يجب أنْ ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته بما قدّمته ووصفته، وبما أمسكتُ عنه وطويته إمّا هرباً من التطويل، وإمّا خوفاً من القال والقيل.وبعد فقد

أصبحت هامة اليوم أو غد فإنّي في عشر التّسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة؟ أو رجاء لحال جديدة؟"

إذن من الطبيعي أنْ يؤلِّف التوحيدي في الصداقة والصديق، وهما أمران بقي يفتقدهما طيلة عمره، ومن الطبيعي أنْ تكون كتابته متَّسمه بالصّدق وبشيء من البوح، فالموضوع يكشف عن ثقافة واسعة وبَصَر دقيق وعن كثير من التشاؤم.

تأليف الرسالة

قال أبو حيّان التوحيدي اللَّهم! خُذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقّى الجيوب، حتى نتعايش في هذه الدار مصطلحين على الخير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدِّين، آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البَيْن، متزوّدين للعافية التي لابدَّ من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطِّلاع عليها، إنَّك تؤتي من تشاء ما تشاء.

سُمع منّي في وقت بمدينة السَّلام كلامٌ في الصَّداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة، وما يلحق بها من الرعايّة، والحفاظ، والوفاء، والمساعدة، والنصيحة، والبذل، والموآساة، والجود، والتكرُّم، ممَّا قد ارتفع رسمُه بين الناس، وعَفا أثرُه عند العام والخاص، وسئلتُ إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملةٍ مما قال أهلُ الفضل والحكمة، وأصحابُ الديانة والمروءة، ليكونَ ذلك كلُّه رسالةً تامَّة يمكن أن يستفاد منها في المعاش والمعاد.

وسمعتُ الخوارزمي أبا بكر محمد بن العبّاس الشاعر البليغ يقول: اللَّهمَّ نفِّق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلحْ قلوب الناس فقد فسدت، ولا تُمِتْني حتى يبورَ الجهلُ كما بار العقلُ، ويموتَ النّقص كما ماتَ العلمُ.

دعاء التوحيدي

وأقول: اللَّهمَّ اسمعْ واستجبْ، فقد برح الخفاءُ، وغلب الجفاءُ، وطال الانتظارُ، ووقع اليأسُ، ومرض الأملُ، وأشفى الرجاءُ، والفرج معدوم، وأظنُّ أن الدَّاء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد.

صداقة عجيبة

فأوَّل ذلك أنّي قلتُ لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إنّي أرى بينك وبين ابن سيَّار القاضي ممازجة نفسيَّة، وصداقة عقليّة، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خَلقية. فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا

بنيَّ! اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يرثان على الدهر، ولا يُحوَّلان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب، مشاكلةٌ عجيبةٌ، ومظاهرةٌ غريبةٌ، حتى إنَّا نلتقي كثيرًا في الإرادات، والاختيارات، والشّهوات، والطلبات، وربَّما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهةً بأمورٍ حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنّها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها، أو هو أنا، وربّما حدَّثته برؤيا فيحدّثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل.

قال: ورأيته قد مَلَكه التعجب من هذا وشبهه، فحدَّثتُه بما تتقاسمه من قوى الفلك، وأن سهامنا واحدة، وأنصابنا منها متساوية، أو قريبة من التساوي، فعَجِب وازداد بصيرة في إخلاص الصَّداقة، وتوكيد العلاقة.

فقلت لأبي سليمان: كيف يصحُّ هذا، وأنت مطالبُك في الفلسفة، وصورُك مأخوذة من الحِكمة، وجعبتُك[1] مجموعة من الحقائق، وخوضُك في الغوامض والدقائق، وذاك رجلٌ في عداد القضاة، وجِلَّة الحكّام، وأصحاب القلانس، ومخاضهُ الظاهرُ الذي عليه الجمهور، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم.

فقال: هذا هو الذي انفردنا عنه بَعد أن ازدوجنا عليه، والأصل أبدًا مخالف للفرّع، لا خلاف الضدِّ للضدِّ، ولكنْ خلاف الشّكل للشّكل، وكان مُشْتَريه خاليًا من قوة زُحَل، فبرز في حلبة القضاة، وكان المُشتري لي مقتبسًا من زُحل، فظهرتُ بما ترى، فجمعتنا المشاكلة على العلم، وفرَّقنا الاختلاف بالفن.

قلتُ: هذا والله طريف، وممَّا يزيد في طرافته أنَّك من سجستان وهو من الصَّيْمرة[2]. فقال: الأمكنةُ في الفلك أشدُّ تضامًّا من الخاتم في إصبعك، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضيّة من بلدٍ إلى بلدٍ بفراسخ تُقطع، وجبالٍ تُعلى، وبحارٍ تُخرق.

فقلتُ: هل تجد عليه في شيء أو يجدُ عليك في شيء؟ فقال: وجدي به في الأول قد حَجَبَني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنّه يكتفي منّي فيما خالف هوايَ باللّمحة الضئيلة، وأكتفي أنا أيضًا منه في مثلِ ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حالٍ تُعرض على طريق الكناية عن غيرنا، كأنَّنا نتحدَّثُ عن قوم آخرين، ويكونُ لنا في ذلك مقنع، وإليه مفزع، وقلَّ ما نجتمع إلّا ويحدثني عنّي بأسرارٍ ما سافرتْ عن ضميري إلى شفتي، ولا ندَّتْ عن صدري إلى لفظي، وذاك للصَّفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتَّفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه، والأصل الذي رسوخُنا فيه، والفرع الذي تشبُّثنا به، والله ما يسرّني بصداقته حمر النعم، ولا أجدُ بها بحياتي ما أجد بها حياتي لي، وإذا كنتُ أعشق الحياة لأنّي بها أحيا، كذلك أعشق كلَّ ما وصل الحياة بالحياة، وجَنَى لي ثمرتها، وجلب إليَّ روحها، وخلط بي طيبها وحلاوتها.

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيَّار بعجائب، وأمَّا أنا فما عرفتُه إلا قاضيًا جليلًا، صاحب جدٍّ وتفخيم وتوقيرٍ وتعظيم، وكان مع ذلك بسيطَ اللسان، شريفَ اللفظ، واسع التصرُّف، لطيفَ المعاني، بعيدَ المَرامي، يذهب مَذهب أبي حنيفة.

الصداقة وطبقات الناس

ثم قال أبو سليمان: الصَّداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزَّلَّةُ فيها غير مأمونة، وكسرُها غير مجبور.

قال: فأمَّا الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصحّ لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنَّما أمورُهم جارية على القُدْرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف، وأمَّا خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشَّبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم، لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويَرِدُ عليهم.

وأما التُّنَّاء[3] وأصحاب الضياع، فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير.

وأمَّا التّجّار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم وبين كلّ مروءة، وحاجزٌ لهم عن كل ما يتعلّق بالفتوة.

وأمَّا أصحاب الدِّين والورع فعلى قلَّتهم فربما خلصتْ لهم الصَّداقة لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على أحكام الحَرَج، وطلب سلامة العقبى.

وأمَّا الكتَّاب وأهل العلم فإنّهم إذا خلوْا من التنافس، والتحاسد، والتماري، والتماحك فربما صحَّت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل.

وأمَّا أصحاب المذاب والتطفيف فإنّهم رِجْرِجةٌ بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مخازي فتنتشر، ولذلك قيل لهم: همج، ورعاع، وأوباش، وأَوناش، ولفيف، وزعانف، وداصة، وسُقاط، وأنذال، وغوغاء، لأنهم من دقَّة الهمم، وخساسة النفوس، ولؤم الطبائع على حالٍ لا يجوز معها أن يكونوا في حَوْمة المذكورين، وعصابة المشهورين.

شكوى التوحيدي من فقدان الصديق

فلهذه الأمور الحائلة عن مقارِّها، الزائغة إلى غير جهاتها علل وأسباب، لو نَفَّس الزمان قليلًا لكنَّا ننشط لشرحها، وذِكْر ما قد أتى النسيان عليه، وعفَّى أثرَه الإهمالُ، وشَغل عنه طلبُ القوت. ومن أين يُظفر بالغداء، ومَنْ كان عاجزًا عن الحاجة؟ وبالعشاء ومَنْ كان قاصرًا عن الكفاية؟ وكيف يُحتالُ في حصول طمرين للسَّتر لا للتَّجمُّل؟ وكيف يُهرب من الشَّر المقبل؟ وكيف يُهرول وراء الخير الْمُدبر؟ وكيف يُستعان بمن لا يُعين؟ ويُشتَكَى إلى غير رحيم؟ ولكن حال الجريض دون القريض، ومن العجب والبديع أنَّا كتبنا هذه الحروف على ما في النَّفس من الحرق، والأسف.
والحسرة، والغيظ، والكمد، والومد، وكأنّي بغيرك إذا قرأها تقبَّضت نفسه عنها، وأمرس[4] نقده عليها، وأنكر عليَّ التطويل والتهويل بها. وإنّما أشرتُ بهذا إلى غيرك؛ لأنّك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، واطِّلاعك على دُخلتي، واستمراري على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأَسَى؛ لأنّي فقدتُ كلَّ مؤنسٍ، وصاحبٍ، ومرفقٍ، ومشفقٍ، والله! لربما صليتُ في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلِّي معي، فإنْ اتّفق فبقَّالٌ، أو عصَّار، أو ندَّاف، أو قصَّاب، ومَن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصُنانه، وأسكرني بِنَتنه، فقد أمسيتُ غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخُلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازماً للحيرة، محتملًا للأذى، يائسًا من جميع مَن ترى، متوقعًا لما لابدَّ من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظلّ التلبث إلى قلوص.

استحالة وجود الصديق

وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنّه لا صديق، ولا من يتشبَّه بالصَّديق، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الدِّين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصّة والعامّة، وعوتب في ذلك، فقال: لقد صحبتُ الناسَ أربعين سنة فما رأيتُهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا لي عَبرة، ولا قبلوا مني عذرة، ولا فكّوني من أسرة، ولا جبروا منّي كسرة، ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرعًا للغيظ مع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات بعد الهنات، ولذلك قال الثوري لرجلٍ قال له أوصني قال: أنكرْ مَنْ تعرفه، قال: زدني، قال: لا مزيد.

وكان ابن كعب يقول: لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم، والاعتماد عليهم، ولذلك قال الأول:

إخاءُ الناسِ ممتزج

وأكبر فعلهم سَمِجُ

فإنْبَدَهتك مقطعةٌ

فما لذنوبهم فرجُ

فقوِّمهم بهجرهمِ

فإنْ لم يُهجروا اعتوجوا

صروفُ الدهر دانيةٌ

تَقَطَّعُ بينَها الْمُهَجُ

أصدقاء العصر

وأنشدني أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي في إخوان الزمان لنفسه:

أيا ربُّ كلُّ الناس أبناءُ عِلَّةٍ

أمَا تعثَر الدُّنيا لنا بِصديقِ

وُجُوهٌ بها من مُضْمر الغُلّ شاهدٌ

ذواتُ أديمٍ في النِّفاق صَفِيقِ

إذا اعترضوا دون اللقاء فإنّهم

قذًى لعيونٍ أو شَجًى لحلوقِ

وإنْ أظهروا بَرْدَ الوداد وظلِّه

أسَرُّوا من الشَّحناء حَرَّ حريقِ

ألَا ليتني حيث انتوتْ أفرخُ القَطَا

بأقصى محلٍّ في الفلاة سَحيقِ

أخو وحدةٍ قد آنستني كأنَّني

بها نازل في معشري وفريقي

فذلك خيرٌ للفتى من ثَوائِه

بِمَسْبَعَةٍ من صاحبٍ ورفيقِ

وكان العسجدي يقول كثيرًا: الصداقةُ مرفوضة، والحفاظُ معدوم، والوفاءُ اسم لا حقيقة له، والرعايةُ موقوفة على البذل، والكرم فقد مات، والله يحيي الموتى!

استرسال الكلام في هذا النَّمط شفاءٌ للصدر، وتخفيفٌ من البُرَحاء[5]، وانجيابٌ للحرقة، واطِّرادٌ للغيظ، وبردٌ للغليل، وتعليلٌ للنفس.ولا بأس بإمرار كلّ ما لاءمه، ودخل في حوزته، وإنْ كان آخرُه لا يدرك، وغايتُه لا تُملك.

بُنيَّ عليك بتقوى الإلَه

فإنَّ العواقب للمتَّقي

وإنَّك ما تأتِ من وجهه

تجد بابه غير مُستغلقِ

عدوّك ذو العقل أبقى عليك

مِن الصاحب الجاهل الأخرقِ

وذو العقل يأتي جميل الأمو

ر ويعمدُ للأرشد الأوفقِ

فأمَّا الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير، وأثنى عليهم الجميل، ووصف جدَّه بهم، ودلَّ على محبَّته لهم، فغريبٌ! قال بعضهم:

أنتم سروري وأنتم مُشتكى حَزَني

وأنتم في سَواد الليل سُمَّاري

أنتم وإنْ بَعُدت عنّا منازلكَم

نوازلُ بين أسراري وتذكاري

فإنْ تكلَّمتُ لم ألفظ بغيركُمُ

وإنْ سكتُّ فأنتم عَقْدُ إضماري

الله جارُكُمُ ممَّا أحاذرُه

فيكم وحبّي لكم مِن هَجْركم جارِي

وقال آخر:

أخٌ لُمته أو لامني ثم نَرْعوي

إلى ثائبٍ من حلمنا غير مُخْدَجِ

أهونُ إذا عزَّ الجليل وربما

أزَمْتُ برأسِ الحيَّة المتمعِّجِ

أخبرنا أبو سعيد السِّيرافي، قال: أخبرنا ابن دُريد قال: قال أبو حاتم السِّجستاني: "إذا مات لي صديق سقط مني عُضْوٌ.

كتب علي بن عبيدة الريحاني البصري إلى صديق له: كان خوفي من ألّا ألقاك متمكنًا، ورجائي خاطرًا، فإذا تمكن الخوف طفيت، وإذا خطر الرجاء حييت.

وقال جعفر بن محمد: صحبة عشرين يومًا قرابة.

وقال رجل لضيغم العابد: أشتهي أن أشتري دارًا في جوارك حتى ألقاك كلّ وقت، قال ضيغم: المودّة التي يفسدها تراخي اللقاء مدخولة.

وكتب آخر إلى صديقٍ له: مثلي هَفَا، ومثلك عَفَا، فأجابه: مثلك اعتذر، ومثلي اغتفر.

وقال أعرابي: الغريب، من لم يكن له حبيب.

وقيل لأعرابي: من أكرمُ الناس عِشرةً؟ قالَ: مَنْ إنْ قَرُبَ مَنَح، وإنْ بَعُدَ مَدَح، وإنْ ظُلِم صفَح، وإنْ ضُويقَ فَسَح، فمَن ظفر به فقد أفلح ونجح.

صفات الصديق

قال العتَّابي لصاحبٍ له: ما أحوجَك إلى أخٍ كريم الأخوّة، كامل المروءة، وإذا غبت خلفك، وإذا حضرت كَنَفك، وإذا نكرت عرفك،وإذا جفَوتَ لاطفك، وإذا بَررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإنْ لقيَ عدوك كفَّ عنك غَرْب العادية، وإذا رأيتَهُ ابتهجتَ، وإذا باثَثْتَه استرحتَ.

وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.

وقيل للخليل: استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو؟ قال: نعم، كما أنّ تخريق الثوب أهون من نسجه.

وقيل لابن المقفَّع: الصديق أحبُّ إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضًا يجب أنْ يكون صديقًا.

مرض قيس بن سعد بن عبادة فأبطأ إخوانه عنه، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدَّينْ، فقال: أخزى اللهُ ما يمنع الإخوان من العيادة، ثم أمر مناديًا فنادى؛ ألَا مَنْ كان لقيس عليه حق، فهو منه في حلٍّ وسعة، فكُسرت درجته بالعشي لكثرة من عَادَهُ.

صداقة ونفع

وقلَّ الذي يرعاكَ إلَّا لنفسه

وللنَّفع يعتدُّ الصديق معدَّه

قال أبو عثمان الجاحظ: كان ابن أبي دُوَاد إذا رأى صديقه مع عدوّه قتل صديقه. قال أبو حامد المرورّوذي: هذا هو الإسراف والتجاوز والعداء الذي يُخالف الدِّين والعقل، لعلَّ صديقك إذا رأيته مع عدوّك يَثنيه إليك، ويعطفه عليك، ويبعثه على تدارك فائتةٍ منك، ولو لم يكن هذا كلّه لكان التأنِّي مقدَّمًا على العجل، وحسنُ الظن أولى به من سوء الظن. ثم قال: ذهب الإنصافُ في العداوة والصداقة، وأصبح الناس أبناءَ واحدٍ في الرغبة، والرهبة، والجهل، والجبرية، والعمل على سابق الهوى، وداعية النفس، وهذا لأن الدِّين مَرْخيُّ الرَّسن، مخدوشُ الوجه، مفقوءُالعين، مزعزَعُ الركن، والمروءة ممزَّقةُ الجلباب، مهجورة الباب، ليس إليها داعٍ، ولا لها مُجيب، والله المستعان.

قال الأصمعي: كان يقال: البخيل من أقرض إلى مَيَسْرة.

قال عُمر بن شبَّة: التقى أَخَوان في الله، فقال أحدهما لصاحبه: والله يا أخي إنّي لأحبُّك في الله، فقال له الآخر: لو علمت منّي ما أعلمُه من نفسي لأبغضتَني في الله. فقال: والله يا أخي لو علمتُ منك ما تعلمه من نفسك لمنعني من بغضك ما أعلمه من نفسي.

وقال المدائني: إذا وليَ صديق لك ولاية، فأصبته على العُشْر من صداقته، فليس بأخِ سوء.

قال فيلسوف: من عاشَرَ الإخوان بالمَكْر كافؤوه بالغدر.

وقال إبراهيم بن أدهم: أنا منذُ عشرين سنة في طلب أخٍ إذا غضب لم يَقُل إلَّا الحق فما أجده.

وقال عُبيد الله بن قيس الرُّقيَّات:

يَســـــتأسـُون علـى الصَّديـــــ

ـــــــــق وللعــــــــــــدوِّ ثَعَالـــــــبُ

اعتل بعض إِخوان الحسن بن سهل، فكتب إليه الحسن: أجدُني وإيَّاك كالجسم الواحد، إذا خَصَّ عضوًا منه أَلَمٌ عمَّسائره، فعافاني الله بعافيتك، وأدام ليَ الإمِتاع بِك.

الصديق الحميم

قال ثعلب: كان يُقال: لَعَداوةُ يحيى بن برمك أنفعُ لعدوِّه من صداقة غيره لصديقه.

قال ابن الأعرابي عن المفضل: جاء رجل إلى مُطيع بن إياس، فقال: قد جئتُك خاطبًا، قال: لمن؟ قال: لمودتك، قال: قد أنكحتُكَها، وجعلت الصَّداق أن لا تقبل فيَّ مقالة قائل.

قال أبو الدرداء: معاتبة الأخ خير من فَقدِه، ومن لك بأخيك كلّه، أَطِعْ أخاك، ولِنْ له، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح، غدًا يأتيك أجله فيكفيك فقدَهُ، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصلَه؟

قال بعض السلف: عليك بالإخوان، ألم تسمع قوله تعالى: (فَمَالَنا مِن شافِعينَ ولا صَديقٍ حَميم.)

وأنشدنا الأندلسي:

لي صديق هو عندي عوزٌ

من سَدادٍ لا سِدادٌ من عَوَزْ

شاعر:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسهِ

والمرءُ يصلحه الجليسُ فيصلحُ

وقال جعفر بن محمد: حافِظْ على الصديق ولو في الحريق.

وقال شاعر:

لستُ ذا ذلّةٍ إذا عضَّني الدهـ

ـرُ ولا شامخًا إذا واتاني

أنا نارٌ في مرتقى نفس الحا

سد ماءٌ جارٍ مع الإخوان

أخبرنا الطبراني، قال: سمعتُ عبد الله بن المعتز يقول: قال بعض المِلاح: إنّ الناس قد مُسخوا خنازير، فإذا وجدت كلبًا فتمسك به.

قال أبو العيناء في رجلين أفسد ما بينهما: تنازعا ثوب الْعُقوق حتى صدعاه صَدْعَ الزجاجة ما لها من جابر.

قال شُرَيْح القاضي: الخليط أحق من الشفيع، والشفيع أحق من الجار، والجار أحق ممن سواه.

قال رجل لأبي مجنب: إني لَأَوَدُّكَ، فقال: إني لأجد رائد ذاك.

وقال كاتبٌ: قد أهديتُ لك مودَّتي رغبةً، ورضيتُ منك بقبولها مثوبةً، وأنت بالقبول قاضٍ لحقٍّ، ومالكُ لرِقٍّ، والسلام.

سُئل صعصة عن طلحة فقال: كان حلو الصداقة، مرَّ العداوة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الإخوان بمنزلة النار، قليلُها متاع، وكثيرها بَوار.

قال الأحنف: كانت المودّة قبل اليوم مَحْضًا، فليتها تكون اليوم مَذْقًا[6].

قال عمرو بن سعيد بن سلام: كنت في حرس المأمون ليلةً من الليالي نائبًا. فبرز المأمون في بعض الليل متفقِّدًا مَن حضر، فعرفته، فقال لي: مَن أنت؟ فقلت: عمرو - عمرك الله- بن سعيد - أسعدك الله- بن سلام - سلمك الله- فقال: أنت تكلؤُنا مذ الليلة. قلت يكلَؤُكَ الله.فقال المأمون:

إنّ أخا الهيجاء مَن يسعى معك

ومن يضرُّ نفسَه لينفعكْ

ومَنْ إذا صرفَ زمان صدعك

بدَّد شمل نفسه ليجمعكْ

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار، فوددتُ أن الأبيات طالت.

قيل للعتَّابي: إنَّا نراك زاهدًا في استطراف الإخوان؟ قال: إنّي لم أحمد تالدهم.

تمثَّل عبد الملك بقول الشاعر:

فاستبق ودّك للصديق ولا تَكُنْ

قَتَبًا يعضُّ بغاربٍ مِلْحاحا

واهجرهُم هَجْرَ الصديق صديقه

حتى تلاقيَهم عليك شِحاحا

قال أبو سعيد السيرافي أخبرنا ابن دريد، حدَّثنا عبد الرحمن، قال: عرّض عمّي الأصمعي برجل كان حاضرًا، فأنشد:

صديقك لا يُثني عليك بطائلٍ

فماذا ترى فيك العدو يقولُ

فقال الرجل:

وحسبك من لؤمٍ وخبثٍ سجيَّةً

بأنَّك عن عيب الصديق سؤولُ

وقال شاعر:

يصافيني الكريم إذا التقينا

ويبغضني اللئيم إذا رآني

قال ابن عائشة: جزعُك في مصيبة صديقك أحسنُ من صبرك، وصبرُك في مصيبتك أحسنُ من جزعك.

قال أبو جعفر المنصور: مَنْ أعطى إخوانه النَّصَفة، وعاشرهم بجميل العِشْرة قويَ بهم عضُده، وزاد بهم جَلَدُه، وبذلوا دونه الْمُهج، وخاضُوا في رضاه اللُّجج.

وقال شاعر:

بيني وبين لئامِ الناس معتبةٌ

ما تنقضي وكرامُ الناس إخواني

إذا لقيتُ لئيم القومِ عنَّفني

وإنْ لقيتُ كريمَ القوم حيَّاني

وقال شاعر:

وكنتُ إذا الصديقُ أراد غيظي

وأشرقني على حَنَقٍ بريقي

عفوتُ ذنوبَه وصفحتُ عنه

مخافةَ أنْ أعيش بلا صديقِ

قال بعضُ السلف:

استطرد لعدوّك، وأبقِهِ بإظهار الرضا عنه، والمداراة له، حتى تصيبَ الفرصة فتأخذه على غِرَّة.

قال طلحة بن عبد الله: أعظمُ لخَطَرِكَ ألّا تُري عدوَّ كأنّه لك عدو.

صداقة وعلاقة

الحسن بن وهب: طرف الصداقة أَمْلَحُ من طرف العلاقة، والنفس بالصديق آنسُ منها بالعشيق.

قال شاعرٌ:

ولقد طويتُكُم على علّاتكم

وعرفتُ ما فيكم من الأدغالِ

معنى الصديق

قيل لروح بن زنباع: ما معنى الصديق؟ قال: لفظ بلا معنى.

وأنشد هلال بن العلاء الرقيّ:

لمَّا عفوتُ ولم أحقد على أحد

أرحتُ نفسي من غمِّ العداواتِ

إنّي أُحيي عدوّي عند رؤيته

لأدفعَ الشرَّ عنّي بالتحيَّاتِ

وأُظهر البِشْر للإنسان أُبغضُه

كأنَّه قد ملا قلبي محبَّاتِ

والناسُ داءٌ، وداءُ الناس قربُهُم

وفي الجفاء لهم قطع الأُخُوَّاتِ

فلستُ أُسْلمُ ممن لستُ أعرفُه

فكيف أسلم من أهل المودَّاتِ

ألقى العدوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ به

يكاد يقطر من ماء البشاشاتِ

وأحزمُ الناس من يلقى أعادِيَهُ

في جسم حقدٍ وثوبٍ من مودَّاتِ

قال الشعبي: تعايش الناسُ بالدِّين زمانًا حتى ذهب الدِّين، ثم تعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسيتعايشون بالجهالة زمانًا طويلًا.

لسَعْيَةَ بن عُرَيْض اليهودي:

وإذا تصاحبهم تصاحبْ خانةً

ومتى تفارقهم تفارقْ عن قِلَى

إخوان صدقٍ ما رأوك بغبطةٍ

فإذا افتقرتَ فقد هوى بك ما هوى

إنَّ الكريم إذا أردتُ وصاله

لم يُلفِ حَبْلي واهنًا رثَّ القُوَى

أرعى أمانته وأحفظ عهده

جَهْدي فيأتي بعد ذلك ما أتَى

يَجزيكَ أو يُثني عليكَ وإنّ مَن

أثنى عليكَ بما فعلتَ كمن جَزَى

قرع رجل باب بعض السلف في ليلٍ، فقال لجاريته: أبصري مَن القارع؟ فأتت الباب فقالت: مَن ذا؟ قال: أنا صديق مولاكِ، فقال الرجل: قولي له: والله إنّك لصديق؟ فقالت له ذلك فقال: والله إني لصديق، فنهضِ الرجل وبيده سيف، وكيس، يسوق جاريةً، وفتح الباب وقال: ما شأنُك؟ قال: راعني أمر، قال: لا بكَ، ما ساءَك، فإني قد قسمتُ أمرك بين نائبةٍ فهذا المال، وبين عدوٍّ فهذا السيف، أو أيْمَةٍ[7] فهذه الجارية! فقال: الرجل: للهِ بلادُك ما رأيتُ مثلَك.

قال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل له ظلمُ الغضب، وظلمُ الدَّالَّة، وظلم الهفوة.

قال بزرجمهر: إيّاك وقرناء السوء، فإنَّك إنْ عملتَ قالوا: راءَيْتَ، وإنْ قصَّرت قالوا: أثمتَ، وإنْ بكيتَ قالوا: شهرتَ، وإنْ ضحكتَ قالوا: جَهِلْتَ، وإنْ نَطَقْتَ قالوا: تكلّفت، وإنْ سكَّتَ قالوا: عييتَ، وإنْ تواضعت قالوا افتقرتَ، وإنْ أنفقتَ قالوا: أسرفتَ، وإنْ اقتصدتَ قالوا: بخلتَ.

وقال أبو بكر: قارِبْ إخوانك في خلائقهم تسلم من بوائقهم[8]، وترتع في حدائقهم.

قال أعرابي: دَعْ مصارمة[9] أخيك، وإنْ حَثَا الترابَ في فيك.

قال عمرو بن العاص: مِنْ أفحشِ الظلم أن تلزم حقك في مال أخيك، فيبذله لك، ويلزمك حقّه في تعظيمك إياه فتمنعه، فإذا أنت جشمته إفضال المنعمين، وابتذلته ابتذال الأكفاء.

وقال أعرابي لصديق له: كن ببعضك لي حتى أكونَ بكلِّي لك.

وفي كليلة ودمنة: صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرَّت على النتن حملت تننًا، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا.

وقال أيضًا: المودّة بين الصالحين بطيءٌ انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب، بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودةُ بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخَّار التي يكسرها أدنى شيء، ولا وصل له.

قال عثمان بن عفَّان: ما ملك رفيقًا من لم يتجرَّع بغيظٍ ريقًا.

قال أبو عثمان النَّيْسابوري، وكان من الزُّهَّاد العُبَّاد: أنكر عليَّ أبو حفص، أيام ملازمتي وخدمتي له شيئًا، فضقت ذرعًا، وهممتُ لو أنّي بِطيِّ الأرض حتى لا يراني، فخيّل إليه ذاك مني، فلما رآني قال لي: يا أبا عثمان! لا تثِقْ بمودة من لا يحبك إلّا معصومًا، قال: فسكنتُ، وعدتُ إلى العادة.

قال الأصمعي: قال أعرابي: أعجزُ الناس من قصَّر في طلب الإخوان، وأعجزُ منه من ضيَّع مَن ظفر به منهم.

قيل لمسوّر بن مخرمة الزهري: أيُّ الندماء أحبُّ إليك؟ قال: لم أجد نديمًا كالحائط، إنْ بصقتُ في وجهه لم يغضب عليَّ، وإن أسررتُ إليه شيئًا لم يُفشه عني.

قال ابن مناذر: كنتُ أمشي مع الخليل فانقطع شِسْعُ[10] نعلي، فخلع نعله، فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحفاء!

واجب الصديق

قال أبو العتاهية: قلتُ لعلي بن الهيثم: ما يجب للصديق؟ قال: ثلاث خلال: كتمان حديث الخلوة، والمواساة عند الشدة، وإقالة العثرة.

قال عبد الملك بن صالح: مشاهدة الخلّان أحسن من إقبال الزمان، وألذ من نيل الأمان، وأحلى من رضا السلطان.

وقال بزرجمهر: الأصدقاء كالسّلاح، فمنهم من يجب أنْ يكون كالرمح يطعن به من بعيد، ومنهم كالسهم يرمى به ولا يعود إليك، ومنهم كالسيف الذي لا ينبغي أنْ يفارقك.

نَبْذُ الصداقة

وإذا أردتَ الحق علمتَ أنّ الصداقة، والألفة، والأخوة، والموَّدة، والرعاية، والمحافظة قد نُبذت نبْذًا، ورفضت رفْضًا، ووطئت بالأقدام، ولُويت دونها الشفاه، وصرفتْ عنها الرغبات.

ولَمَّا غنَّى عَلَويَّه المأمون قول الشاعر:

وإنّي لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ

يرقُّ ويصفو إنْ كدرتُ عليهِ

عذيري من الإنسان لا إنْ جفوتُه

صَفَا لي ولا إنْ صرتُ طوعَ يديه

استعاده المأمون مرّات، ثم قال: هات يا عَلَويه هذا الصاحب، وخذ الخلافة، قد صرنا، ولله الحمد، نرضى اليوم من الصاحب، والجار، والْمُعامل، والتابع، والمتبوع أنْ يكون فضلُهم غامرًا لنقصهم، وخيرُهم زائدًا على شرِّهم، وعدلُهم أرجحُ من ظُلْمهم، وأنّهم إنْ لم يبذلوا الخير كلَّه لم يستقصوا الشرَّ كلَّه، بل قد رضينا بدون هذا، وهو أن نَهَبَ خيرهم لشرهم، وإحسانهم لإساءَتهم، وعدلهم لجوْرهم، فلا نفرح بهذا، ولا نحزن لذاك، ونخرج بعد اللتيا والتي بالكَفاف والعَفَاف!.

صديق سوء

قال مطيع بن إياس في صديقٍ كان له يصفه بالنميمة:

إنَّ مما يزيدني فيك زهدًا

أنَّني لا أراك تصدقُ حرفا

لا ولا تكتم الحديث ولا تنـ

طقُ جِدًّا ولا تمازح ظَرْفا

وإذا منصفٌ أرادك للنّصـ

ـفِ أبيت الوفاء وازددت خُلفا

وإذا قال عارفًا قلت سوءًا

وإذا قال مُنكرًا قلت عُرْفا

وأنشد ابن الأعرابي:

وصلتُكُم جهدي وزدتُ على جهدي

فلم أرَ فيكم من يدومُ على العهدِ

تأنُّيتكمُ جهد الصديق لتقصدوا

وتأبون إلَّا أنْ تحيدوا عن القَصْدِ

فإنْ أُمس فيكم زاهدًا بعد رغبةٍ

فبعد اختبار كان في وصلكم زهدي

إذا خنتُم بالغيب عهدي فما لكم

تُدِلُّون إدلالَ المقيم على العهدِ

صِلُوا وافعلوا فعلَ المدلِّ بوصله

وإلّا فصدّوا وافعلوا فعل ذي الصدِّ

فكم من نذيرٍ كان لي قبلُ فيكم

وها أنا ذا فيكم نذيرًا لمن بعدي

تعزّوا بيأسٍ عن هوايَ فإنَّني

إذا انصرفتْ نفسي فهيهاتَ من ردِّ

أرى الغدر ضدًّا للوفاء وإنَّني

لأعلمُ أنَّ الضدَّ ينبو عن الضدِّ

قال لقمان: من يصحب صاحب الصلاح يَسْلَم، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم.

وقال أيضًا: جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإنّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

قال الفضيل بن عياض: قال لي ابن المبارك: ما أعياني شيء كما أعياني أنّي لا أجد أخًا في الله، قال: فقلت له: لا يهيدنَّك[11] هذا فقد خبُثت السرائر، وتنكَّرت الظواهر، وفنيَ ميراث النبوَّة، وفُقد ما كان عليه أهلُ الفتوَّة.

كان عامر بن قيس إذا توجَّه للغزو توسَّم[12] الرفاق، فإذا رأى قومًا لهم هدى قال: يا قوم إنّي أُريد أنْ أصحبكم على ثلاث خلالٍ فيقال له: ما هنَّ؟ قال: أكون خادمًا لكم، ومؤذِّنا بينكم، وأنفق عليكم. فإذا قالوا: نعم، صحِبهم، وإلّا تركهم.

قيل لفيلسوف: من أطول الناس سفرًا؟ قال: من سافر في طلب صديق.

السُّكون إلى الصديق

سمع ابن عطاء رجلًا يقول: أنا في طلب صديقٍ منذ ثلاثين سنة فلا أجده، فقال له: لعلَّك في طلب صديق تأخذ منه شيئًا، ولو طلبتَ صديقًا تعطيه شيئًا لوجدت! قال أبو سليمان: هذا كلام ظالم، الصديقُ لا يُراد ليُؤخذ منه شيء، أو ليُعطي شيئًا، ولكن ليُسْكنَ إليه، ويُعتمدَ عليه، ويُستأنسَ به، ويُستفادَ منه، ويُستشارَ في المُلم، وينهضَ في المهم، ويُتزينَ به إذا حضر، ويتشوَّق إليه إذا سَفَر، والأخذ والإعطاء في عرض ذلك جاريانِ على مذهب الجود والكرم، بلا حسد، ولا نكد، ولا صَدد، ولا حدد[13]، ولا تلوّم، ولا تلاوم، ولا كُلوح[14]، ولا فتوح، ولا تعريض بنكير، ولا نكاية بتغيير.

قيل لأرسطاطاليس الحكيم معلم الإسكندر الملك: مَنِ الصديق؟ قال: إنسان هو أنت، إلَّا أنه بالشخص غيرُك!

سئل أبو سليمان عن هذه الكلمة وقيل له: فسِّرْها لنا، فإنها وإن كانت رشيقةً فلسنا نظفر منها بحقيقة. فقال: هذا رجل دقيقُ الكلام، بَعيدُ المرام، صحيحُ المعاني، قد طاعت له الأمورُ بأعيانها، وحضرتْه بغيبها وشهادتها، وكان ملهمًا مؤيَّدًا، وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها، ألَا ترى أنّ لهذه الموافقة أولًا، منه يبتدئانها، كذلك لها آخرُ ينتهيان إليه، وأوّل هذه الموافقة توحُّدٌ، وآخرُها وَحْدةٌ، وكما أن الإنسان واحدٌ بما هو به إنسان، كذلك يصير بصديقه واحدًا بما هو صديق؛ لأنّ العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تحولان إرادةً واحدة، ولا عجب من هذا، فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله:

روحُه روحي، وروحي روحُه

إنْ يشأ شئتُ، وإن شئتُيَشَا

وليس يبعد هذا عليكم إلَّا لأنّكم لم تروْا صديقًا لصديق، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنسُ المقتبَس من الحيوان، وينظمكم النوعُ المقتبس من الإنسان، ويؤلفكم بعد ذلك البلد، أو الجوار، أو الصناعة، أو النسب، ثم أنتم في كلّ ذلك الذي اجتمعتم عليه، وانتظمتم به، وتألفتم له على غاية الافتراق، للحسد الذي يدبُّ بينكم، والتنافس الذي يقطع علائقكم، والتدابر الذي يثير البينونة منكم، ولو استصحبتم ما شملتكم به الطبيعةُ الكبرى في الأول، لم تميلوا إلى ما حابتكم فيه الطبيعة الصغرى في الثاني، أعني أنّكم معمومون بصورة الإنسان من ناحية النوع، كما أنّكم معمومون بصورة الحيوان من ناحية الجنس، ومعرَّضون لنيل صورة الملائكة بالاختيار الجيد، كما أنّكم معرّضون لنيل صورة الشياطين بالاختيار الرديء، فلو ثبتم على الصراط المستقيم، وعلِقْتُم

حبل العقل المتين المستبين، واعتصمتم بالعُروة الوثقى من الهدى والدِّين، كنتم كنفس واحدة في كل حال، ذلَّت أو صعبت، تجمَّعت أو تشعَّبت، تعرَّفت أو تنكَّرت.

وكانت هذه الشريفة، أعني الموافقة والوحدة، تسري في الصديق والصديق، ثم في الثاني والثالث، ثم في الصغير والكبير، وفي المطيع والمُطاع، والسائس والمسوس، وفي الجار والجار، وفي المحلَّة والمحلَّة، والبلد والبلد، حتى تبلغ الأغوار والنُّجود، وتشتمل على الأداني، والأقاصي، فحينئذٍ ترى كلمة الله العليا، وطاعته العالية، إلَّا أنّ هذا لمَّا كان متعذّرا جدًّا؛ لأن المادة الأولى لا تنقاد لهذه الصورة، والصورة الأولى لا تلابس هذه المادة، طُلب هذا المتعذّر في الواحد مع الواحد، في الزمان بعد الزمان، على السنن بعد السنن، على المكان بعد المكان، بالدعوة بعد الدعوة، والهيئة بعد الهيئة، بالتعاون بعد التعاون.

وإذا بَعُدَ المطلوبُ من جهة عامة لعلةٍ مانعةٍ فليس ينبغي أن يقنط من الظفر به من جهة خاصة لعلّة معطية، ومن المحال أن يكون المطلوب يدلّ على صحته العقل، ثم لا يوجد في أحد المعدنَيْن اللذين له، ولو استحال الوصول إليه، والتمكّن منه، لكان العقل لا يدلّ على صحته، والرأي لا يشتاق إلى تحصيله، والطبيعة لا تنحو نحو مظنَّته، والاختيار لا يحول في طلبه، قال فعلى هذا يُحمل رمز الحكيم في قوله: الصديق إنسان هو أنت، إلَّا أنه بالشخص غيرُك.

وكان كلامُه أتمَّ من هذا وأنفس، ولكنّي ظفرت بهذا القَدْر فرويته على ذلك، وقول هذا الحكيم شبيه بقول روْح بن زِنْباع، وقد سُئِل عن الصديق، فقال: لفظ بلا معنى، أي: هو شيء عزيز، ولعزَّته كأنَّه ليس بموجود، ولو جهل معنى الصديق لجهل معنى الصاحب، و لو جهل معنى الصاحب لجهل معنى الخليل، وعلى هذا، الحبيب، والرفيق، والأليف، والوديد، والموآخي، والمساعد، وهذه كلّها على رَزْدَقٍ[15] واحد، وإنما تختلف بالمرتبة في الأخص، والأعم، والألطف، والأكثف، والأقرب، والأبعد، والأخلص، والأريَب.

قال الإسكندر لديوجانس: بِمَ يعرفُ الرجلُ أصدقاءه، قال: بالشدائد؛ لأنَّ كلَّ أحد في الرخاء صديق.

قيل لديوجانس: ما الذي ينبغي للرجل أن يتحفَّظ منه؟ قال: من حسد أصدقائه، ومكر أعدائه.

قيل لثيفانوس الفيلسوف: مَن صديقك؟ قال: الذي إذا صرتُ إليه في حاجةٍ وجدتُه أشدَّ مسارعةً إلى قضائها منّي إلى طلبها منه.

قال فيلسوف: ليس يتلهَّف العاقل على الصديق؛ لأنّه إنْ كان فاضلًا تزيَّن به، وإن كان سفيهًا راضَ حلمه به.

قال انكساغورس: كيف تريد من صديقك خُلقًا واحدًا، وهو ذو طبائع أربع[16] وفي مثله قال الشاعر:

وأنَّى له خُلُقٌ واحدٌ

وفيه طبائعُه الأربعُ

قال أبو سليمان: والرأي السديد أنْ تجعل طبائعك الأربع طباقًا لطبائعه الأربع، أو طبائعه الأربع، طباقًا لطبائعك الأربع، فإنك إذا قدرتَ على ذلك، قدرتَ بعده على أنْ تتعرف روائد هذه الأربع، ذاهبًا بها نحو الاعتدال الذي هو صورة من صور الوحدة، فإذا أنتَ صديقُك، وصديقُك أنتَ، على ما صرّح به الحكيم كانيًا، أو على ما كنَّى عنه مصرِّحًا، فقد بان هذا الحديث من ناحية اللفظ، والنطق، والعبارة، والإشارة، وإنْ كان قد بقي علينا أن نجد هذا المطلوب من ناحية العيان والمشاهدة فإنَّا إنْ وجدنا ذلك غنينا عن الخبر والاستخبار؛ لأنّ الأثر لا يطلب بعد العين، والْحُلم لا يُتمنى بعد اليقظة، والسُّكْر لا يُحمد بعد الصحو.

مدارة الناس

قال الزّهيري: اعلم أنّ المداراة مطِيّة وطيئة، وروضة موبقة، ما لبس أحد ثوبها إلَّا وجده فضفاضًا، وقد قال صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم: "مُداراةُ الناس صَدَقَة".

وقالت العرب: من لم يدارِ عيشه ضلَّ.

قال العوامي: لو كانت المداراة تثنيهم لي، أو تعطفهم عليَّ كانت مبذولة، ولكنّها مضرّة لهم على ما أنكر منهم، ومضرَّة لي فيما أعرف، ولا خير في بثِّ خير لا يُورِّث خيرًا.

ورأيت ابن سعدان ينشد يومًا وقد أنكر شيئًا في بعض الندماء:

عدوٌّ راح في ثوب الصديق

شريك في الصَّبوح وفي الغبوقِ

له وجهانِ: ظاهِرُهُ ابنُ عمٍّ

وباطنُه ابن زانيةٍ عتيق

يسرك ظاهرًا ويسوءُ سرًّا

كذاك تكونُ أبناءُ الطريقِ

وأنا أسمّي لك ندماءَه، وأروي كلامًا له وصفهم به، منهم: أبو علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، وابن الحجَّاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس، وأبو بكر، ومسكويه، وأبو القاسم الأهوازي، وأبو سعد بهرام بن أردشير.

وكان أوزنهم عنده وألصقهم بقلبه هو ابن شاهَوَيْه. هؤلاء أهل المجلس، سوى الطارئين من أهل الدولة، لا فائدة في ذكرهم. قال زيد بن رفاعة، وكان قريبًا له من جهة الخوف له: رأيتُ الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق، ويعرض على أهل الآفاق، ليستفيده الصغير والكبير.

قال: أصحابي طرائقُ قِدَدُ، كما قال عبد الحميد الكاتب: الناسُ أخيافٌ مختلفون، وأصنافٌ متباينون، فمنهم عِلْقُ مَضَنَّةٍ لا يُباع، ومنهم غُلٌّ مَظَنَّةٍ لا ينباع، وكما قال الآخر:

النَّاسُ أخيافٌ وشَتى في الشِّيَمْ

وكُلُّهُم يَجْمَعُهُم بَيْتُالأَدَمْ

رسالة في معنى الصداقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الصداقةُ - أطال الله مدّتك- التي قد وكَّدها الله بيننا بالدِّين أولًا، ثم بالجوار ثانيًا، ثم بالصناعة ثالثًا، ثم بالْمُمَالحة[17] رابعًا، ثم بالمنشأ خامسًا، ثم بالْمُعَاقرة[18] سادسًا، ثم بالتجربة سابعًا، ثم بالإلف[19] ثامنًا، ثم بالميلاد تاسعًا، ثم بانتظام هذه كلّها عاشرًا؛ تتقاضاني لك حقوقًا، أنت عن التقصير فيها أغنى، وأنا بالإعفاء منها أملى، وإذا كنا على هذا السِّياج دارجين، وفي هذه الْحَوْمة داخلين، وعنها خارجين، فليس لحاسد إلينا سبيلٌ، ولا لمتكلِّف علينا دليل، والله إنّك لَتُذْكَرُ، وأجد لذكرك عَبقًا يزيد على عبَق العنبر[20] ، وتُوصَف فأري لوصفك مالا يراه أحدٌ من البشر لأحد من البشر، وربما حلمتُ بك في الرؤيا، فيكون في ذلك قُوتي طولَ يومي، ومن كان هذا نعتُهُ من أجلك، فكيف يُنَمِّقُ بالقلم شوقَه إليك، وكيف يذكرُ ما يختصه لك، وكيف يجهزُ ما يشتمل عليه مَنْ خَالِصَتُهُ[21] ومحبتُه إليك قد يقصرُ اللفظ للطف المعنى، كما يطولُ المعنى لقصر اللفظ.

والإخاءُ إذا قدم استحكم أمره، واستوسقت[22] سرائره، وعند ذلك يكون الوصف باللسان تكلُّفًا، والتكلف للوصف تأفُّفًا، وقد حَضَرَ لعبدك ولدي خِتَانٌ أنت أولى الناس فيه بالقيام والقعود، بين الناي والعود، فإنْ رأيت أنْ تبدر إلى ذلك غداة غدٍ، مكافحًا للشمس عند الطلوع، غير عائجٍ إلى غيره فعلتَ إن شاء الله.

فكان الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أُوتيتَ - مدَّ الله في عمرك- لسانًا، وبيانًا، وقلمًا، وخطًّا، فمَن رام شأوك انْقَعَصَ[23]، ومن توهمَّ اللحاق بك نَكَص[24]، فللّه درُّك من ساحرٍ بلفظه، وخالبٍ بقلمه، ومؤَيدٍ بعقله، ومسعودٍ بفضله، ومقدَّم بفرعه وأصله، ومشهورٍ بإنصافه وعدله، ذكرتَ الصداقة التي وكَّدها اللهُ بيننا بالأسباب التي أحصيتَها، والوجوهِ التي سردتَها، ولو لم يكن الحال على ما وصفت لكان الذي أُوجِبُه لك على نفسي من الطاعة إذا دعوتَني، والائتمار إذا أمرتني، والتشرُّف إذا ناجيتني، والانتساب إليك إذا قَبِلْتني، والاعتماد عليك إذا أذنتَ لي فوق مودَّاتِ أهل الزمان، بدرجاتٍ عالياتٍ، وقامات مديدات، وباقياتٍ صالحاتٍ، فكيف ونحن نجتمع في نِصاب[25]، ونجتلي في نِقاب، ليس لنا في إخلاص المودَّة شريكٌ، ولا يتقدمنا فيها ضريبٌ، وما أسألُ الله بعد هذا كلِّه إلا دوامَها، وصرفَ العيون عنها، ومدَّ الإمتاع بها، وسكونَ النفس والروح إليها.

فأمَّا ما أومأتَ إليه من البِدار إلى خدمة ولدك سيدي - نماه الله- فإني غيرُ ملتفت إلى فرض ونَفْلٍ[26] دونه والسلام.

ندرة الصديق

وقال جعفر بن يحيى لبعض ندمائه: كم لك من صديقٍ؟ قال: صديقان. قال: إنَّك لَمُثْرٍ من الأصدقاء.

وقال سهلُ بن هارون: الصديقُ لا يُحَاسبَ، والعدو لا يُحتسب له[27].

قيل لأبي العَيْناء: هل ظفرتَ بصديقٍ مُوَالٍ؟ قال: ولا بعدوٍّ مُراءٍ.

ولمّا احتاج زياد إلى الْحُقْنَة وُصفت له، فأنكرها، فقيل له: إنّما يتولاها الطبيبُ، قال: إنْ كان لابدَّ منها فالصديق.

وقيل لِلْجُنَيْد: ابنُ عطاء يدّعي صداقتك فهل هو كما يقول؟ قال: هو فوقَ ما يقول، وأجدُ ذلك له من قلبي بشواهد لاتكْذِبُني عنه، ولا تَكْذِبُهُ عني.

قيل لأبي علي النصير: لمَ لا تتخذ الأصدقاء؟ قال: حتى أفرغَ من الأعداء، فوالله لقد شغلوني بأنفسهم عن كلِّ صديق يُعينني عليهم، وإحَالةُ العدو عن العداوة أوْلى من استدعاء الصداقة من الصديق.

قيل لرُوَيْم: ما الذي أقعدك عن طلب الصديق؟ قال: يأسي من وِجْدانه.

قيل لأعرابي: أَلَكَ صديقٌ؟ قال: أمَّا صديقٌ فَلَا، ولكنْ نصفُ صديق، قيل: فكيف انتفاعُك به؟ قال: انتفاع العُرْيان بالثوب البالي.

قيل لصُوفي: صِفْ لنا الصديق؟ قال: هو الذي إذا عرَّضَ لك بالمكروه، صرَّحتَ أنت له بالمحبوب، وإذا صرَّح لك بالمحبوب ساعدته عليه.

لفظة الصديق

قلت لابن حمود الأندلسيّ: مِمَّ أُخذ لفظ الصديق؟ قال أخذ بنظر من الصِّدْق، وهو خلافُ الكذب. ومرةً قال: من الصَّدْق؛ لأنه يقال: رُمْحٌ صَدْقٌ أي صُلْبٌ، وعلى الوجهين، الصديق يصدُق إذا قال، ويكون صَدْقًا إذا عمل، قال: وصُدْقةُ المرأة وصَداقها وصُدقتها كلّه منتزع من الصِّدق والصَّدق، وكذلك الصادق، والصديق، والصدوق والصَّدَقة، والمتصَّدِّق والمصَّدَّق، كل هذا متواخٍ[28].

سمعتُ القاضي أبا حامد يقول: قلتُ للمنصوري: ما أشغَفَك بابن عبدان مع تشاكسٍ ما بينكما في البلد والمذهب، فقال: ذاك لأنّي وجدته كما قال الشاعر:

موفَّق لسبيل الرشد متَّبعٌ

يَزينُه كلُّ ما يأتي ويَجْتَنِبُ

تسمو العيونُ إليه كلَّما انفرجتْ

للناس عن وجهه الأبوابُ والْحُجُبُ

له خلائقُ بيضٌ لا يغيِّرها

صِرفُ الزمان كما لا يصدأُ الذَّهبُ

خلاف بين أصدقاء

وحدثنا حمد بن محمد كاتب ركن الدولة قال: دبَّ بيني وبين أبي الفضل، يعني ابن العميدُ، بعض المفسدين فكتب إليَّ:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ تَسْفيق[29] الكلام بيني وبينك موضوعٌ؛ لأنّك عن ذلك مرفوعٌ، وقد رضيت أن تستأني فيما تسمع، فإذا صحَّ به ذنب عاقبت بقدره، أبادَ أم أبقى، توسَّط أم تطرَّف، ولا أقول إلّا ما قال الأول:

أطعتُ الوشاةَ الكاشِحين ومن يُطِعْ

مقالةَ واشٍ يقرعِ السِّنَّ من نَدَمْ

أتاني عدوٌّ كنتُ أحسِبُ أنَّهُ

علينا شفيقٌ ناصحٌ كالذي زَعَمْ

فلَمَّا تباثَثْنَا الحديثَ وصرَّحتْ

سرائرُه عن بعضِ ما كان قد كَتَمْ

تبيَّن لي أنَّالمحرِّشَ كاذبٌ

فعندي لك العُتْبَى على رغم مَنْ زَعَمْ

تعريف الصديق

قيل لصُوفي: مَنِ الصديقُ؟ قال: من لم يُجدْك سواه، ولم يُفقدْك من هواه.

وقيل للشِّبْلي: مَنِ الرفيق؟ قال: من أنتَ غاية شغله، وأوكدُ فَرْضِهِ ونَفْلِهِ. قيل له: فمن الشَّفيق؟ قال: مَنْ إنْ دهمتك محنةٌ قَذِيَتْ عينُه لك، وإنْ شملتك مُنحةٌ قرَّت عينُه بك. قيل له: من الوافي؟ قال: من يحكي بلفظه كمالك، ويرعى بلحظه جمالك. قيل له: فمَن الصاحب؟ قال: مَنْ إنْ غاب تشوَّفتْ إليه الأحبابُ، وإن حَضَر تلقَّحتْ به الألبابُ. قيل: فمَن النديم؟ قال: مَنْ إنْ نأى ذُكر عند الكاس، وإن دنا مُلك بالاستئناس.

فوارق الصداقة

كان بين أبي الخطَّاب الصَّابي وبين أبي كعب الداهية[30] التي لا تُرام بعد صداقةٍ كانت زائدةً على شُبْكَةِ[31] الرحم، ولَحْمَة[32] النَّسَب، فقيل له - أعني أبا الخطاب- كيف أنتَ مع ابن كعب، فأنشد:

خليلانِ مختلفٌ شأنُنَا

أريدُ العلاءَ ويَبْغي السِّمَن

وكان ابن الجلاء الزاهد بمكَّة يقول لأصحابه: اطلبوا خِلَّةَ[33] الناس في هذه الدنيا بالتقوى تنفعْكم في الدار الأخرى، ألمْ تسمعوا الله تعالى يقول: (الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ).

وقال الحرّاني في تصنيف الناس: منهم مَنْ هو كالغذاء الذي يُمسك رمقَك ولابدَّ لك منه على كل حال؛ لأنه قِوامُ حياتك، وزينةُ دهرك، ومنهم مَن هو كالدواء يُحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدار محدود، ومنهم مَن هو كالسُّم الذي لا ينبغي أنْ تقربه فإنّه سبب هَلكتِك.

قيل لأعرابي: كيف أُنسُك بالصديق؟ قال: وأين الصديقُ، بل أين الشبيهُ به، بل أين الشبيه بالشبيه به؟ والله ما يُوقد نار الضغائن والذُّحُول[34] في الحيِّ إلَّا الذين يدّعون الصداقة، وينتحلون النصيحة، وهم أعداءٌ في مُسُوك[35] الأصدقاء وما أحسنَ ما قال حضريُّكم:

إذا امتحن الدُّنيا لبيبٌ تكشفتْ

له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

وقال آخر:

إذا نوبةٌ نابَتْ صديقك فاغتنمْ

مَرمَّتَها فالدَّهْرُ بالناس قُلَّبُ

وبادر بمعروفٍ إذا كنتَ قادرًا

وحاذِرْ زوالًا من غنًى عنك يُعقبُ

فأحسنُ ثوبيك الذي هو لابس

وأفْرَهُ مُهْرَيْك الذي هو يُركبُ

وقال أيضًا:

اجعلْ صديقَكَ مَنْ إذا أحببتَهُ

حفظ الإخاءَ وكان دونك يُضربْ

واطلبهُمُ طلبَ المريض شفاءَه

ودعِ اللئيمَ فليس ممن يُصْحَبُ

يُعطيك ما فوق الْمُنَى بلسانه

ويروغُ عنك كما يروغ الثعلبُ

واحذرْ ذوي الَمْلَقِ اللئام فإنّهم

في النائبات عليك ممن يخطُبُ

فلقد نصحتُك إن قبلتَ نصيحتي

والنُّصحُ أفضلُ ما يُباحُ ويُوهبُ

وقال آخر:

خيرُ إخوانك المشاركُ في الضُّـرْ

ـرِ وأين الشريكُ في الضُّر أيْنَا؟

لا يَنِي جاهدًا يحوطُك في الحضْـ

ـرِ فإنْ غبتَ كان أُذْنًا وعَيْنا

أنتَ في معشرٍ إذا غِبْتَ عنهم

بدّلوا كلَّ ما يزينُك شَيْنَا

وإذا ما رأوكَ قالوا جميعًا:

أنتَ من أكرم البرايا عَلَيْنا

التداوي بالرِّياء

وقلتُ لأبي المتيّم الصُّوفي الرَّقيّ: كيف حالُك مع فلان؟ قال: نتداري بالرِّياء إلى أنْ يَفْرجَ الله، قلت: هلا تخالصتما عن الرياء والنِّفاق؟ فقال: والله إنَّ خوفي من أنْ يصير الرياءُ والنفاق مكاشفةً، والمكاشفةُ مفارقةً، أشدُّ من خوفي من الرِّياء. والعجبُ أنَّ المؤونة علينا في الصَّبر على هذه الحال أغلظُ من المؤون لو تصافينا، إلَّا أنَّالتصافي لا يكونُ منّي وحدي، ولا منه وحدَهُ، ولعلَّه يتمنى ذلك منّي، كما أتمنّى ذلك منه، ولكنْ لا يطابقُ ذلك مطابقةً لحيلولة الزمان، والفساد العام، وغلبة ما لا سبيل إلى تغييره، طلعت الأرض بأهلها، والحاجة ماسَّة إلى كلمةٍ طريَّة، ودعوةٍ فاشيةٍ، وأمرٍ جامعٍ، حتى تأتلفَ القلوبُ، وتنتفي العيوبُ، وهذا إلى الله الذي خلقَ الْخَلْق، ودبَّر الشأن، وتفرَّد بالغيب، وتعزَّز بالقُدرة، وكما أنّ في السَّنة الواحدة للزمان أحوالًا في الحر الْمُفْرط، و البرد المفرط، والحر المتوسط، والبرد المتوسط، كذلك للدّهر المديد أحوالٌ في الخير العام، والشرِّ العام، والخير الخاص، والشر الخاص، والعاقل مَنْ لا يتمنّى مالا يوجد، ولكنْ يَصْبِرُ على ما يجد، إن حُلوًا فحلوًا، وإن مرًّا فمرًّا، إلى أنْ يأذَنَ الله بالفرَج من حيث لا يحتسب.

قال معمر صاحب عبد الرزاق: ما بقيَ من لذّات الدنيا إلَّا محادثةُ الإخوان، وأكلُ القديد[36]، وحكُّ الجرب، والوقيعةُ في الثقلاء.

قال الشاعر:

وما بقيتْ من اللّذات إلَّا

محادثةُ الرجال ذوي العقولِ

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا

فقد صاروا أقلَّ من القليل

وفاء ومَخْبَر وورع

قال الأحنَف: لا خيرَ في صديقٍ لا وفاءَ له، ولا خيرَ في منظرٍ لا مَخْبَر[37] له، ولا خيرَ في فِقْهٍ لا وَرَعَ معه.

قال العُتبي: قال أعرابي: إذا استخار العبدُ ربَّه، واستشار صديقَه، واجتهد رأيَه فقد قضى ما عليه لنفسه، ويقضي الله في أمره ما أحبَّ.

توفي ابنٌ ليونُس بن عُبيد فقيل له: إنَّ ابن عون لم يأتك. فقال: إنَّا إذا وَثِقْنا بمودَّة أخٍ لا يضرّنا ألّا يأتينا.

وحدثني العَروضي قال: لما دعا السلطان علي بن عيسى من مكة تلقاه قوم من بغداد إلى زُبَالَة[38] وإلى ما فوقها ودونها، فلما قرَّت به الدار بمدينة السلام أتاه قوم لم يُجشّموا لِقِيَّهُ، فقال: كم من إنسانٍ قعد لَمْ يرِمْ مجلسه حتى وافيناه، فكان ألوط[39] بقلوبنا، وأسكنَ في أسرارنا من قوم جُشِّمُوا المسير إلى زُبالَةَ، إلَّا أنّ المودَّةَ هي الأصل، والصداقةَ هي الرُّكن، والثقةَ هي الأساس، ومًا عدا ذلك فمحمول عليه، ومردودٌ إليه.

قصة المأمون

قال يحيى بن أكثم: كنتَ أرى شيخًا يدخل على المأمون في السَّنة مرة، وكان يخلو به خلوةً طويلةً ثم ينصرف، فلا نسمع له خبرًا، ولا نرى له أثرًا، لا نُقْدِمُ على المسألة عنه فلما كان بعد قال لنا المأمون: وا أسفًا على فَقْدِ صديقٍ مسكونٍ إليه، موثوق به، يُلقى إليه العُجَر والبُجَرَ[40]، ويُقتبسُ منه الفوائدُ والغُرر، قلنا وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترى شيخًا يأتينا في الفَرْط[41]، ونخلُو به من دون الناس؟ قلت: بَلى، قال: فإنه قد تأخر عن إبَّانه، وأظن أنه قد قضى، قلت: الله يمدّ في عمر أمير المؤمنين، وما في ذلك؟ قال: كان صديقي بخراسان، وكنتُ أستريحُ إليه استراحةَ المكروب، وأجِدُ به ما يُوجَدُ بالولد السارِّ المحبوب، ولقد كنتُ أستمدُّ منه رأيًا أقوِّمُ به أوَدَ المملكة، وأصِلُ به إلى رضاء الله في سياسة الرعية، وآخر ما قال لي عند وداعه أنْ قال: يا أمير المؤمنين إذا استقشَّ[42] ما بينك وبين الله تعالى فابلُلْهُ، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده، فإنّه يُحبُّ الإحسان إلى عباده، كما تُحبُّ الإحسان إلى ولدك من حاشيتك، والله ما أعطاك القدرة عليهم إلَّا لتصرَّ على إحسانك إليهم بالشّكر على حسناتهم، والتغمّد[43] لسيئاتهم، وأيّ شيء أوجه لك عند ربك من أن تكون أيامُك أيامَ عدلٍ وإنصافٍ، وإحسانٍ، وإسعافٍ، ورأفةٍ، ورحمةٍ؟ ومَنْ لي يا يحيى بمثل هذا القائل؟ وأنَّى لي بمن يذكّرني بما أنا إليه صائر.

لَمَّا وقع الاختلاف بالمدينة خرج عُرْوَةُ بن الزُّبير إلى العَقيق، واعتزل الناس، فعاتبه إخوانُه، فقال: رأيتُ ألسنتهم لاغية، وأسماعهم صاغية، وقلوبهم لاهِية، وأديانهم واهية، فخفتُ أن تلحقني منهم الداهيةُ، وكان لي فيما هنالك عنهم عافيةُ. قال سويد بن الصامت:

ألا رُبَّ مَنْ تدعُو صديقًا ولوْ تَرى

مقالَتَهُ بالغيب ساءَكَ ما يَفْري

الصداقة والعلاقة

قلت: فما الفرقُ بين الصداقة والعَلاقة؟ فقال: الصداقة أذهبُ في مسالك العقل، وأدخلُ في باب المروءة، وأبعدُ من نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبهُ بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرَّشاد، وآخذُ بأهداب السَّداد، وأبعد من عوارض الغَرارة[44] والْحَداثة.

فأمّا العَلاقة فهي من قِبَل العشق، والمحبَّة، والكَلَف[45]، والشَّغَف[46]، والتَّتيُّم[47]، والتَّهيُّم، والهَوَى، والصَّبابة، والتَّدانُف[48]، والتَّشاجي[49]. وهذه كلُّها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة، والطبيعة القويَّة، وليس للعقل فيها ظِلٌّ، ولا شخصٌ، ولهذا تُسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذُّكْران والإناث، وتنال منهم، وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول، وأداء النفوس، وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزَّواجر، والمواعظ، ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المِزاج، والطريق الوسَط.

عتاب الأصدقاء

عَتَبَ ابن ثَوابَة أبو العباس على سعيد بن حُميد في شيء، فكتب إليه سعيد:

أقْلِلْ عِتابَك فالزمانُ قليلُ

والدَّهرُ يَعْدِلُ مرَّة ويميلُ

لمٍ أبْكِ مِن زمنٍ ذممتُ صُروفَه

إلا بكيتُ عليه حين يزول

والْمُنْتَمُون إلى الإخاء جماعةٌ

إن حصَّلُوا أفناهُم التحصيلُ

ولكلّ نائبةٍ أَلَمَّت مُدَّةٌ

ولكلِّ حالٍ أقبلَتْ تَحْويلُ

فلئن سُبقتَ لتبكينَّ بحسرةٍ

وليكثرنَّ عليَّ منك عويلُ

ولتُفْجَعنَّ بمخلصٍ لك وامقٍ

حبلُ الوفاء بحبله موصول

ولئن سَبَقْتَ، ولا سَبَقتَ، ليمضيَنّ

مَن لا يشاكله لديَّ عديلُ

وليذهبنّ جمالُ كلِّ مروءةٍ

وليُقْفرنّ فِناؤها المأهولُ

ولذاك نكلفُ بالعتاب وودُّنا

باقٍ عليه من الوفاءِ دَليلُ

وُدٌّ بدا لذوي الإخاء صفاؤُه

وبدتْ عليه بهجةٌ وقبولُ

الصديق المنشود

وحدثنا أبو السائب: كتب إليَّ أبو الشَّهم الحرمي أيام الشبيبة في خلافة المعتمد، والزمانُموآتٍ، والعيشُ رفيق، والأملُ قوي، وطائرُ السعد مرنِّق[50]، وغديرُ الأنس مُغْدَوْدِقٌ[51]: ما أحوجَك أيُّها الفتى المقتبِل[52]، والصاحب المؤمَّل، إلى أخٍ كريم الأُخوَّة، كامل المروّة، إذا غبتَ خلَفَك، وإذا حضرت كنَفَكَ، وإنْ لقي صديقك استزادهُ لكَ من المودَّة، وإنْ لقي عدوّك كفَّ عنك غربَ العادية[53]، وإذا رأيته ابتهجتَ، وإذا باثثتَهُ[54] استرحتَ. قال: فأجبته، هوّنْ عليك فليس هذا بأول مُتَمنًّى فائت، والسلام.

الجليس الثقيل

يقول بشار:

ُ

ربَّما يثقل الجليسُ وإنْكا

نَ خفيفًا في كِفَّة الميزانِ

قال العتَّابي: لا أُحبُّ رجلًا نَقَل إليَّ ما كرهتُ عن صديقي، فغيَّرني له، ولا عن عدوٍّ، فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأنْ واجهني بما ساءَني سماعُه. أما قوله:

قد كنتُ أبكي على ما فاتَ من سَلفي

وأهلُ ودّي جميعًا غيرُ أشتاتِ

فاليومَ إذْ فرَّقتْ بيني وبينهمُ

نَوًى: بكيتُ على أهل المودَّاتِ

فليس ما نحن فيه بسبيل؛ لأنّ الكلام في الصداقة على كرم العهد، وبذلِ المال، وتقديم الوفاء، وحفظِ الذِّمام، وإخلاصِ المودَّة، ورعاية الغيب، وتوقُّر الشهادة، ورفضِ الموجدة، وكظْم الغَيظ، واستعمالِ الحلم، ومجانبة الخلافِ، واحتمالِ الكَلِّ[55]، وبذَلِ المعونة، وحملِ المؤُونة، وطلاَقةِ الوجه، ولُطف اللسان، وحسن الاستنابة[56] والثباتِ على الثِّقة، والصبر على الضَّرّاء[57]، والمشاركة في البأساء[58]، والعلاقةُ، وإنْ كانت تستعير من هذه الأبواب شيئًا فليس ذلك؛ لأنَّه من عتادها وأساسها، ولا ممّا لا يتمُّ إلَّا به، ولكنْ من أجل التحسُّن والتزيُّن. وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلامٌ قَصْدٌ[59]، قريبٌ، سليمٌ، مقبولٌ، ولسنا نتعقَّبُه بنقص، ولا نقدح فيه باعتراض؛ لأنّ العاشقَ والمعشوقَ ليسا من الصديق والصديق، وإنْ كانا يتشابهان ببعض الأخلاق، ويتلاقيان في بعض الأحوال. فليكن هذا الرسمُ كافيًا محفوظًا، فإنّ المغالطة قد تقع في هذا كثيرًا، والإنصاف يقوم عليه دائمًا.

الحياة بلا أصدقاء

قال القرباني محمد بن يوسف: قلت للثَّوْري: إنّي أريد الشام فأوصني، قال: إنْ قدرت أنْ تُنْكِرَ كلَّ مَنْ تعرف فافعلْ، وإنْ استطعتَ أن تستفيدَ مئةَ أخٍ، حتى إذا خلصوا لك تُسقط منهم تسعةً وتسعين، وتكون في الواحد شاكًّا، فافعل.

قد شدّد هذا الشيخ كما ترى، ولستُ أرى هذا المذهب مُحيطًا بالحقّ، ولا مُعَلَّقًا بالصواب، ولا داخلًا في الإنصاف، فإنّ الإنسان لا يُمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر، ولابدّ له من أسباب بها يحيى، وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة، بعضهم صديقًا، وبعضهم عدوًّا، وبعضهم منافقًا، وبعضهم نافعًا، وبعضهم ضارًّا، ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مردٌّ من دِين، أو عقل، أو فتوّة، أو نَجْدة، ويستفيد هو من ذلك كلّه ما يكون خاصًّا به، وعائدًا بحسن العُقْبى عليه، إمّا في العاجل، وإما في الآجل، ولعزّة الحال في وجدان الصديق، وتعذّر السلامة على القريب والبعيد، قال القائل:

كُنْ لثَغْر البيت حِلْسا

وارضَ بالوحدة أُنْسَا

واغرسِ الناسَ بأرض الـزْ

ـزُهدِ ما عَمَّرت غَرْسَا

وليكُنْ يأسك دون الط

طَمعِ الكاذب تُرْسَا

لستَ بالواحد حرًّا

أو تردَّ اليومَ أَمْسَا

ما وجدنا أحدًا سا

وى على الخِبْرة فَلْسَا

شرط وجود الصداقة

قال علي بن عُبَيْدة: إنّه لا دواءَ لمن لا حياءَ له، ولا حياءَ لمن لا وفاء له، ولا وفاءَ لمن لا إخاء له، ولا إخاءَ لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه له حتى يُحبّوا ما أحبَّ، ويكرهوا ما كرهَ، وحتى لا يرى منهم زَلَلًا ولا خَلَلًا.

بعث النَّضْر بن الحارث إلى صديق له بعبّادان نعلين مخصوفتين[60]، وكتب إليه: إنّي بعثتُ بهما إليك، وأنا أعلمُ أنّك عنهما غنيّ، لكني أحببتُ أن تعلم أنك مني على بالٍ، والسلام.

فأجابه: ما أنا بغنيٍّ عن برِّكَ الذي يحثُّني على شكرك، ويخرطني في سِلْكك، ويزيدني بصيرةً بزيادة الله عندك، ومحبّتك لأن أعلم أنّي منك على بال و يقيني بذلك راسخ، وحمدي عليه غادٍ ورائح، لاعدمتُك لي أخًا بارًّا، ولا عدمتَني لك قائلًا سارًّا.

وقال الشاعر:

تكثّر من الإخوان ما استطعتَ إنّهم

كنوزٌ إذا ما استُنْجدُوا وظهورُ

وما بكثيرٍ ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ

وإن عُدَّ منهم واحدٌ لكثيرُ

وقيل: لو تكاشفتُم ما تدافنتُم.

الصديق أم العشيق

قيل لأعرابي: أبالصديق أنت آنسُ أم بالعشيق؟ فقال: يا هذا الصديق لكل شيء، للجِدِّ والهَزْل، وللقليل والكثير، ولا عاذل عليه، ولا قادحَ فيه، وهو روضةُ العقل، وغَديرُ الروح.

فأمّا العشيق فإنما هو للعين، وبعضُ الريبة، والعذلُ إليه من أجله سَريع، وفي الوُلُوع به إفراطٌ مَزْجورٌ عنه، وحدٌّ موقوف دونه، فأينَ هذا من ذاك؟

مجاراة القلوب

ورُوي عن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "إذا أحبَّ أحدُكم أخاه فَلْيُعْلِمْهُ حتَّى يحبَّه، فإنَّ القلوبَ تتجارى".

ورُوي أيضًا أنه قال صلى الله عليه وسلم: "الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة تتلاقى في الهواء، فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تناكر منها اختلف".

وقال رجل لشَبيب بن شَيْبَة: إنّي لأخلص لك الثقة، وأصفي لك المودَّة، قال شبيب: أشهد على صدقك، وعلى صحة ودّك، قال: وكيف تشهدُ على غيبتي وليس معي من الشاهد إلَّا قولي؟ قال: لأنّك لست بجارٍ قريبٍ، ولا ابنِ عمٍّ نسيب، ولا مُشاكلٍ في صناعة، فنسترهنَك أسباب المحاسدة.

ظلم الأقارب

قال عَديّ بن زَيْد:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً

على المرء من وقع الْحُسامِ المهنَّدِ

وقلت لأبي سليمان: لِمَ صار التنافُس والتَّعادي وما أشبههما في ذوي القربى أكثرَ وأشدَّ، وهذا كالشيء المتعالم، وهو غنيٌّ عن البرهان، وإعادة القول والبيان، وليس ذلك كذلك مع الأجانب والأباعد، فإنْ كان كالشّاذ، كما أنّ التصافي والتخالص أيضًا في ذوي الرحم كالشّاذ؟ فقال: إنَّ ذوي القرابة والرّحم والنسَب يرى كلّ واحدٍ منهم أنّه أولى وأحقُّ بحيازة ما لأبيه وعمَّه، وأنَّ غيره في ذاك كالْمُزاحم والدَّخيل والْمُتَدلِّي، فَتَحْفِزُهُ أعراضٌ كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس، على أنْ يكون هو وحدَهُ حاويًا لتلك المواريث من المال، والجاه، والقَدْر، والمنزلة، وهذه الأعراض لا تعتري الإنسان في البعيد النسَب، والبلد، واللغة، والصناعة، والْخَلْق. وكان كلامُه أكثرَ من هذا لكنّي أوجزتُه؛ لأنّ الرسالة قد طالت، وأخاف أن تُملَّ عند القراءة، ويُنْسب واضعها إلى سوء الاختيار.

كان من دعاء ابن هُبَيْرة: اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من بوائق[61] الثقات، ومن الاغترار بظاهر المودَّات.

وقال أيضًا: اللهمَّ إنّي أعوذَ بك من صديقٍ مُطْرٍ، وجليسٍ مُغْرٍ، وعدوّ يَسْرِ[62].

الصديق الصدوق

وقلت للبَنَويّ مَنْ تحب أن يكون صديقك؟ قال: مَنْ يقيلني إذا عثرتُ، ويقوّمني إذا ازورترتُويهديني إذا ضللتُ، ويصبر عليَّ إذا مللتُ، ويكفيني ما لا أعلم وما علمتُ.

وسمعتُ أبا عامر النَّجدي يقول: الصديقُ من صَدَقَك عن نفسه، لتكونَ على نور من أمرك، ويصدقُك أيضًا عنك، لتكونَ على مثله؛ لأنَّكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرَّخاء، فليس لكما فرحةٌ، ولا تَرْحةٌ، إلَّا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش، والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش.

وقال أيضًا: قيل لأعرابي: ألَكَ صديق؟ قال: لا، ولكن أليف[63].

قال الشاعر:

وأُغضي على أشياءَ منك تُريبني

ولولا اصطباري فاضَ عن عُظْمها قلبي

الإنسان مدنيٌّ بالطبع

قال الأوائل: الإنسانُ مدنيٌّ بالطبع، وبيانُ هذا أنّه لا بدّ له من الإعانة، والاستعانة؛ لأنَّه لا يكُملُ وحدَهُ لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه، وهذا ظاهرٌ، وإذا كان مَدَنيًّا بالطبع كما قيل فبالواجب ما يعرضُ في أضعاف ذلك من الأخذ، والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكونُ سببًا لنظام الحال أو يكون سبباً لانتشار الأمر، ولا محالةَ أنَّ هذه وأشباهَها مُفْضيةٌ بالناس إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمَهُم ونثَرهم، وكتبنا جَوْرَهم وإنصافَهم، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه، وعيون ما ذكروه ونشروه.

قال العطوي:

لا تَبْكِ إثْرَ مُوَلٍّ عنك مُنْحَرِفٍ

تحتَ السَّماءِ وفوقَ الأرضِ أبْدالُ

شروط الصداقة

وقال العتّابي: قلت لأعرابيٍّ قُحٍّ[64]: إنّي أريد أن أتّخذ صديقًا فابعثْه لي حتى أطلبَهُ، قال: لا تبعثْ، فإنّك لا تجِدُهُ، قلت: فابعثْه كيفما كان حتى أتمناه، وإنْ كنتُ لا ألقاهُ، قال: اتَّخِذْ مَنْ ينظرُ بعيْنك، ويسمعُ بأذُنك، ويَبْطشُ بيدك، ويمشي بقدمك، ويحطُّ في هَواك، ولا يرى سواك، اتَّخِذْ مَنْ إنْ نَطَقَ فَعَنْ فكرك يَسْتَملي، وإن هَجَعَ فبخيالك يَحْلُمُ، وإنْ انتبَهَ فَبِكَ يلُوذُ، وإنْ احتجتَ إليه كفاك، وإنْ غِبْتَ عنه ابتداك، يسترُ فَقْرَهُ عنك لئلا تهتمَّ لَهُ، ويُبدي يَسارَه لك لئلا تنقبضَ عنه.

قالت امرأة عبد الله بن مطيع لزوجها: ما رأيت ألأمَ من أصحابك، إذا أيسرتَ لَزِمُوكَ، وإذا أعْسَرْتَ تَرَكُوكَ، فقال: هذا من كرمهم، يَغْشُونَنَا في حال القوة منّا عليهم، ويفارقُونَنَا في حال العجز منَّا عنهم.

وقلت للعَبَاداني: مَنِ الصَّديقُ؟ قال: من شَهِدَ طرفُه لك عن ضميره بالوفاء والودّ، فإنَّ العَيْنَ أنطقُ من اللسان، وأوْقَدُ من النيران.

انتخاب الصديق

قال عبدُ الله بن جعفر لصديقٍ له: إنْ لم تَجِدْ من صحبة الرجال بدًّا فعليكَ بصحبة من إذا صحبتَهُ زانَك، وإنْ خَفَفْتَ له صَانَك، وإنْ احتجت إليه مانك[65]، وإن رأى منك خلةً سدّها، أو حسنة عدَّها، وإنْ وعدك لم يَخْرِصْك[66]، وإنْ كبرتَ عليه لم يرفضك، وإنْ سألتَهُ أعطاك، وإنْ أمسكتَ عنه ابتداك.

أوصاف الصديق

وقيل للحرّاني: بينَك وبين سَهْل بن هارون صداقةً، فانعَتْهُ لنا كي نعرفَ، فقال: هو كالخير، وازنُ العلم، واسعُ الحِلْم، إنْ فَوخِر لم يكذب، وإنْ مُوزِحَ لم يغضب، كالغيث أين وَقَع نَفَع، وكالشمس حيث أوفتْ أحْيَتْ، وكالأرض ما حمَّلتها حملت، وكالماء طَهُورٌ لِملتمسه، وناقع لغُلَّة مَنْ احترَّ إليه[67]، وكالهواء الذي نقطفُ منه الحياة بالتنسُّم، وكالنار التي يعيشُ بها المقرور، وكالسماء التي قد حسُنت بأصناف النُّور.

مَن الصديق؟

قال أبو المتيّم الرَّقيّ: قلت لابن المولَّه: من أُخلصُ إليه، وأشتملُ بسرَّي وعلانيتي عليه؟ قال: مَنْ إذا لم يكن لنفسك كانَ لك، وإذا كنتَ لنفسك كان مَعَك، يجلو صدأ جهلك بعلمهِ، ويَحْسِمُ مادة غيِّك برُشْده، ويَنْفي عنك غِشّ صدرك بنُصْحه، اصحب مَن إنْ قلتَ صدقك، وإنْ سكتَّ عَذرك، وإنْ بذلتَ

شكرك، وإنْ منعتَ سلم لك. قلتُ يا سيدي مَنْ لي بمن هذا نعتَه؟ قال: كن أنتَ ذاك تجدْك على ذاك، ويجدك مثلك على ذاك، كأنَّك إنما تحبّ أن يكون غيرُكَ لك، ولا تحبُّ أنْ تكونَ أنت لغيرك.

وقيل لبُرهان الصُّوفي: مَن الصديق؟ قال: يا هذا مَنْ بِضْعٌ[68] نصفه معدوم عليك، فاطلب مَنْ يسعُك بخلقه، ويؤنسُك بنفسه، ويُواسيكَ من قليله، إنْ رضي عنك لم يُغلظك، وإنْ سَخِطَ عليك لم يمقتْك، يُبدي لك خيرَهُ لتقتديَ به، ويُواري عنك شرَّهُ لئلا تستوحشَ منه، فأمّا من تكونُ مثالَ نفسه في كل حالٍ تلوّن به الدهر، وهَمَّ صدره في كل أمر، يقلّب به الليل والنهار، يقدّم حظّك على حظّه، ولا يسارقُ النظر بلحظه، ولا يُغلظ القول بلفظه، ولا يتغيَّر لك في غَيْبه، ولا يحولُ عما عهدته في شهادته، يعانقُ مصلحتك بالاهتمام، ويثبت قدمك عند الإقدام.

وقيل لأعرابي: كيف ينبغي أنْ يكونَ الصديق؟ قال: مثل الروح لصاحبه، يُحييهِ بالتنفس، ويُمتّعه بالحياة، ويُريه من الدنيا نضارتَها، ويُوصل إليه نعيمَها ولذَّتها.

وقلت للأبهري: مَنِ الصَّديق؟ قال: مَن سلَّم سرَّه لك، وزيَّن ظاهره بك، وبذل ذات يده عند حاجتك، وعفَّ عن ذاتِ يدك عند حاجته، يراك مُنْصفًا وإنْ كنت جائرًا، ومفضلًا وإنْ كنت ممانعًا، رضاه مَنوط برضاك، وهواه مَحُوط بهوَاك، إنْ ضللتَ هداكَ، وإنْ ظمِئْتَ أرواك، وإنْ عجزت آداك[69]، يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك في القَسْم والوَسْم[70].

قلت: أمّا الوصفُ فحسن، وأمّا الموصوفُ فعزيز. قال: إنَّما عزَّ هذا في زمانك حين خَبُثَتِ الأعراق، وفَسَدت الأخلاق، واستُعمل النِّفاق في الوفاق، وخيفَ الهلاك في الفراق، والله لقد شاهدتُ لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون له على مودَّةٍ أذكى من الورد والعَنْبر، إذا لَحَظَهم بطَرْفه تهلَّلوا، وإذا ناقلهم بلفظه تدلَّلوا، وإذا تحكَّم عليهم تعجَّلوا، وإذا أمسك عنهم نوَّلوا وخوَّلوا، وكان يجدونَ[71] به ما لا يجدون بأهليهم وأولادهم، فلقد كانوا زينةَ الأرض، في كلِّ حالٍ من الشِّدَّة والْخَفْض[72]، وإني لأذكرهم، فأجد في روحي عَبَقًا[73] من حديثهم.

قلت: كيف كان انبساطُهم في الاجتماع؟ قال: ما كانوا يتجاوزونَ الليلةَ الحلوةَ، والمزحَ الخفيف، واللفظ اللطيف، والرمز الرشيق، والتبسُّم المقبول، وإذا افترقوا فإنّما هم في اهتمامٍ يعود بنظام عيشهم، وتدوم لهم مسرَّةُ حياتهم، الكلمةُ واحدةٌ، والطريقةُ واحدةٌ، والإرادةُ واحدةٌ، والعادةُ واحدةٌ، والوحدةُ إذا ملكت الكثرة نَفَت الخلاف، وأورثتِ الائتلاف.

ثم تكلَّم في الوحدة والواحد والأحد بكلامٍ في غاية الرقة، مع الإيضاح.

وأنشد لعبد الله بن طاهر:

وما المرء إلا اثنانِ هذا موكَّل

بما يُعجب الإخوان إنْ قالَ أو فَعَلْ

فينزل محمودًا إذا حل منزلَا

ويرحلُ مفقودًا إذا قيل قد رَحَلْ

فأمّا الذي لا خيرَ فيه فإنَّه

وإنْ أُطعم السَّلْوى وأُلعقَ من عَسَلْ

يذيّب عن لحمِ العدوِّ مخافةً

ويأكل من لحم الصديق إذا آكَلْ

وما قلبُه إلَّا وِعاءٌ معطَّلٌ

مِن الودِّ محشوٌّ من الغلِّ والدَّغَلْ

ومَن قلَّ منه الودُّ للناس لم يَنَلْ

مِن الناس إلَّا مثلَ ذلك أو أقلْ

قيل لأبي السائب: ما آفةُ الملال؟ قال: كثرةُ الإدلال.

وقيل لابن أبي عتيق: ما يدعو المحبَّ إلى الهَجْر؟ قال: إدمانُ المحبوب للغَدْر.

لما انتقل ابن المنجّم عن جيرة عُبيد الله بن طاهر إلى دار إسحاق بن إبراهيم الْمَوْصلي كتب عبيد الله إليه أبياتًا:

يا من تحوّل عنَّا وهو يألفُنا

أبعدت عنا ولأيًا صرت تلقانا

فاعلم بأنّك مُذْ فارقت جيرتَنا

بدّلت جارًا وما بدّلت جيرانا

فكتب إليه ابن المنجّم:

بعدتُ عنكم بداري ودون خالصتي

ومَحْضِ ودّي وعهدِي كالذِي كانا

وما تبدَّلت مُذْ فارقتُ قربَكم

إلَّا هُمومًا أُعانيها وأحزانا

تحوّل الصديق

قال فيلسوف: لا تعدنَّ مَنْ آخاك في أيام مقدرتك للمقدرة، واعلم أنه ينتقلُ عليك في أحوالٍ ثلاثةٍ: يكونُ صديقًا يوم حاجتهِ إليك، ومعرفة يوم استغنائِه عنكَ، ومُتجنِّيًا ذنبًا يومَ حاجتك إليه.

مديح الصداقة

قال أعرابي لصاحبٍ له: إني لأصْقُلُ[74] بلقائك عقلي، وأشْحَذُ بمحادثتك ذِهْني، وأطوي بذكر محاسنك أيَّامي، وأرجعُ من طويّتك إلى أكرم موثوقٍ به لرعاية عَهْدٍ، وأفضل متَّكلٍ عليه لمحافظةٍ على ودّ.

وقال آخر لصاحبٍ له: ما زلتُ أعلم أنَّك للسرّ ملءُ الصدر، وأنك في المساعدة أذْكى من الجمر[75]، وأرقُّ من عتيق الخمر، ظريفُ المخاطبة، عَذْبُ المواصلة، لذيذُ المجالسة، هنيءُ العشرة، مقبولُ الظاهر، سليمُ الباطن، منشورُ المطاوي، عارٍ من المساوي.

قال أعرابي لرجل: إنّ فلانًا، وإنْ ضحك لك، فإنَّه يضحك منك، فإنْ لم تتخذْهُ عدوًّا في علانيتك، فلا تجعله صديقًا في سريرتك.

وكتب آخر إلى صديق له: إنّما قلبي نجيُّ ذكرك، ولساني خادمُ شكرك.

عتاب ودعاء

كتب أعرابيٌّ في بعض العتاب: قد طالت علَّتُك أو تعالُلُك، واشتدّ شوقُنا إليك، فعافاكَ الله مِمَّا بك من مرضٍ في بدنك، أو إخائك، ولا أعْدِمْنَاكَ.

قال إسحاق: قلت للعبَّاس بن الحسن: إني لأحبُّك، فقال: رائدُ ذاكَ معي.

قال: وذكرتُ له رجلًا فقال: دَعْني أتذوق طعم فراقه فهو - والله - الذي لا تَشْجى به النَّفْسُ، ولا يكثرُ في إثره الالتفاف.

سئل أعرابي عن صديقٍ له فقال: صَفِرَتْ عِيابُ[76] الودِّ بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرَّتْ وجوهٌ كانت بمائها.

قال الشاعر:

تريكَ أعينُهم ما في صُدورهمُ

إنّ الصدورُ يؤدِّي غشَّها البصرُ

وقال آخر:

متى تك في صديقٍ أو عدوٍّ

تُخبّرْكَ العيونُ عن القلوبِ

وأنشدنا المبرد:

كيف العزاءُ لمن يَعِنُّ له

شربُ الْمُدام ولذةُ الخمرِ

وحديث فِتيانٍ غَطَارفةٍ

وفوارس كالأُنجم الزُّهْرِ

إنْ جئتهم سرّوا وإن نزحتْ

داري فإنَّ حديثهم ذكري

يا ليتني أحْيا بقربهمُ

فإذا فقدتُهمُ انقضى عمري

فتكون داري بين دورهمُ

ويكون بين قبورهم قبري

وصف صديق

وقال أعرابيٌّ في صاحبٍ له: أفصحُ خلق الله كلامًا إذا حَدَّث، وأحسنُهم استماعًا إذا حُدِّث، وأكفُّهم عن الملاحاة[77] إذا خُولِف، يعطي صديقه النافلة[78]، ولا يسأله الفَرِيضة، له نفسٌ عن العوراء مَحْصُورة، وعلى المعالي مَقْصُورة، كالذهب الإبريز[79] الذي يَعْزُّ كلَّ أوَان، والشمسِ التي لا تَخْفى بكل مكان، هو النجمُ المضيء للجيران، والباردُ العذْب للعَطْشان.

كتب أبو الدَّرداء إلى سَلْمَان الفارسي يدعُوه إلى الأرض المقدَّسة، فكتب إليه سَلْمَان: إنْ بَعُدتِ الدار من الدار فإنَّ الروح مع الروح قريب، وطائر السماء على إلفه من الأرض يَقَع.

معرفة الناس

وحُدِّثتُ أنّ رجلًا قال لسُفيان الثوري: أوصني! فقال: أقِل معرفة الناس، وأنكِرْ مَنْ تعرفه منهم، وابدأ بي، وأغْضِبْ مَنْ شئت، ودُسَّ مَنْ يسألُه، فوالله لو لاحَيْتُ[80] رجلًا في زمانه، فغضب، لما أمِنْتُ أنْ يترامى به غضبه إلى سفك دمي، وأفرط - أعزّك الله - مفرطٌ في هذا الزمان، فقال: لا أقول كما قال سُفيانٍ لنقصان دهرنا عن دهره، ولكنّي أقول: أرْضِ مَنْ شئت، ودُسَّ من يسأله عنك، وما أنكر - لكثرة الشّرّ في الناس- أنّ يكون جواب كثير ممّن يرضى، مثل جواب من يغضب، إلّا أنّي أرجو ألّا تكون هذه القضيَّة عامة.

وأنشدني عبيد الله بن عبد الله لنفسه:

وجليسُ الصدقِ خيرٌ

من جلوس المرء وحدَهُ

وهذا لعَمْري كما قال، ولكن كيف لنا بجليس الصدق؟ ولربما نفع قربُ العدو، وضرَّ قربُ الصديق. وهذا كلام يُنكر ظاهرُه إلى أن يَظهر تفسيرُه.

أما العدوُّ الذي ينفع قربُه فهو الذي مقدار ضرّه أن يَثْلبَ ويعيبَ، ويجد مَطْعنًا ليُذيع ويُشيع، فإذا قرَّب هذا صورته ممّن يعاديه وكّله بحراسة نفسه، ومراعاة أموره، وتحصين تدبيره، وتحسين أفعاله، وكان بِرَصْدِهِ له رقيبًا عليه، وإذا دامَ تحفظ الإنسان بهذا الرصد، وترقيّه هذه الرتبة صَلُحَتْ أموره، وكان سببَ صلاحها قربُ هذا العدو منه، وإنما صار للعرب مآثرُ تُنْشر، ومفاخرُ تُذكر، بتوقِّيهم المعاير[81] والمعايب، في المقاوم[82] والمجامع، ولم يخلُ أحدٌ قطُّ من وليٍّ مؤدِّبٍ، أو عدوٍّ مؤنِّبٍ، أو تقريع بخطأ، أو تَهجين[83] بنقص إلّا من أهمل نفسه، ومن عادة الإهمال الهَلاك، وقلَّ من تحفَّظ فسلم من إضاعة، فكيف به إذا أضاع التحفظ من نفسه، وأمِنَه من غيره؟

وقال بعضُ المتقدمين: لا صلاحَ لِلْمَلِك إلّا بنفسه ووزرائه وأعداءٍ يخرجونَ عليه، فيُصْلح نفسَهُ من أجلهم؟

وممَّا دوّنوه من الكلام: أنّه يجب على العاقل أن يتَّخذ أبَويْه أصدقاءَ، وإخوانَه رفقاء، وأزواجَه أُلَّافًا، وبنيه ذُكْراء، وبناتِهِ خُصماء، وأقاربَه غُرماء، والعلماء أولياء، والجيران رُقباء، ويعدُّ نفسه فردًا وحيدًا، فذكروا رُقْبَةَ[84] الجيران، وحضُّوا على توقِّيها، فكيف بالجار العدوّ؟

وأمّا الصديقُ الذي يضرُّ قربُه، فهو الذي إذا قرب توصل بصداقته إلى معرفة الأسرار، وعَلِمَ الأخبار، ثم تحفظ الزَّلل، والتقط الْخَلَل، وأحصى الفَلَتات، وعدَّ الهفّوات، وراعى عَثَرات الألسن، وبوادرَ القول والعمل، عند الغضب والرضا، وفي أوقات الاسترسال التي لا يخلو الإنسان فيها من إغفال، ثم جعل ذلك سلاحًا معدًّا يحمله على صديقه وقت العداوة، وقد قيل في ذلك:

يُحصيَ العيوبَ عليكَ أيامَ الصداقة للعداوَهْ

ونحن لم نخالف في ما عمَّمنا به من الذمّ في باب الإخاء والأنس قول النابغة:

ولستُ بمستبقٍ أخًا لا تلمّه

على شعثٍ: أيُّ الرجالِ المهذَّب

وقول الآخر:

هم الناسُ والدنيا ولم يزلِ القَذَى

يُلِمُّ بعينٍ أو يكدّر مَشْرَبَا

ومن قلَّةِ الإنصاف أنْ تطلب الأ

خ المهذّب في الدنيا ولستَ مُهذَّبَا

وقال آخر:

وكنتُ إذا الصديق نبا بأمري

وأشرقني على حَنَقٍ بريقي

غفرتُ ذنوبه وكَظَمْتُ غيظي

مخافةَ أن أعيشَ بلا صديقِ

هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاءَ والاحتمالَ والصبرَ والكَظْم مع سلامة عمود الإخاء، وإنما وقفوا بالصَّفح والعفو على ما لا يخلو الإنسان يأنس به من مثلَه، ألَا ترى النابغة يقول: أيّ الرجال المهذَّبُ؟

والآخر يقول:

مخافةَ أَنْ أعيشَ بِلا صَدِيقِ

والآخر يقول:

وَمِنْ قلِّة الإنصافِ أنْ تطلبَ الأخ الـ

ـمهذَّب في الدنيا ولستَ مهذَّبا

نقول كما قالُوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يسلم لنا جملة إخائه، وإنما نشكو فَقْدَ عمودِ الإخاء الذي حُصُولُه يغفر ما دونه.

وحيث بلغنا من هذه الشكوى، وهذا الذَّم، فلسنا نجحد النعمة في بقية جميلةٍ في هذا الزمان من أحرار الإخوان، قد قدمك الله فيهم فضلًا وبِرًّا، وهمَّة عليَّةً، وأخلاقًا رضيَّة، ومع ذلك فإنَّ على العاقل في شريطة الإخاء إذا وجد موضع الدِّين والوفاء أن يقتصدَ في المؤاخاة، ويتقصرَ من العدّة على من تَفي طاقتُه بما يجب لهم، فإنّ حقوقهم إذا زادت على وُسعه[85] لحقته الإضاعة لبعضها، وجَنَتْ الإضاعةُ عليه العداوة ممن أضاع حقَّه، ولذلك قيل: كثرةُ الأعداء من كثرة الأصدقاء، وانتظم في هذا المعنى:

إذا اتَّسع الإخاءُ عَرَتْ حقوقٌ

مُراعيها مُقيمٌ في مَضيقِ

فإنْ خصَّتْ رعايتُه فريقًا

أخلَّ بما عليه في فريقِ

وإنْ رامَ القيامَ لهم جميعًا

بشرط الودّ لم يَكُ بالْمُطيقِ

وأوحش بعضهم فأفاد منه

عدوًّا كان في عَدَدِ الصديقِ

فخُذْ مِمَّنْ تؤاخيه بقصْدٍ

وقدّرْ فتحَ أبوابِ الحقوقِ

وقال:

إذا كَثُرَ الإخوانُ للمرء وابتغوا

معونَتَهُ في صَرْفِ دهرٍ وغدره

فوحدتُه لا تستقلُّ بحقِّهم

وكثرتَهم لا تستقل بضُرّه

وكنت أعلمتني أنّك استحسنتَ مني البيتين في ذكر العدوّ والصَّديق وهما:

إنْ كنت تطلب فضلًا

إذا ذكرتَ وَمَجْدا

فَكُنْ لعبدكَ خِلًّا

وكُنْ لِخِلِّكَ عَبْدا

وكان سببهُما أنّ صديقًا لي ضرب عبدًا له، فحضره صديق له، فمنعه الصديق فلم يمتنع، فكتبتُ إليه بهذين البيتين أذكِّره بحقِّ الصديق في عبوديَّة الطاعة، وأخوّة العبد في حقِّ الإيمان، قال الله تعالى: (إنَّما الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ)، هذا مع ما في التسلُّط على المماليك من الدناءة!

ولأحمد بن إسماعيل أيضًا إلى إسحاق بن سعد: وكأنَّ الزمان يخصّ الإخاءَ وأهلَه من كدره ونكَدَه بما لا يعمُّ به غيرهم، فما تشاء أنْ ترى ذَوَيْ صفاءٍ قد فرَّقتْ بينهما نوًى، فحصلا من التزاور على التكاتب، ومن أنس الاجتماع على وَحْشة الافتراق، ومن بهجة اللقاء على لَذْغة الشوق وكثرة التَّوْق[86]، ومن راحة المباوحة والمفاوضة على ضيق الصدور بالأسرار، وكَرْب النفوس بالكتمان؛ إلَّا وجدتهما. ولا تشاء أن تجدَ أمثالهما قد جمعتهما الديار، واعترضت بينهما الأحداث، فاجتماعهما في معنى التفرّق، وقربهما في صورة البعد، إلَّا أنَّ شوقَهما أبرح، ونزاعَهما إلى اللقاء أشدّ، وحسرتهما على ما يفوت منه أكثر إلَّا رأيتهما.

فأمّا إخوانُ اللقاء، وعبيدُ العيون الذين تجمعهم الرَّغبة والرَّهبة، ويتزاورون في المواصلة من العهدة إذا ولَّت مُطمعة، وأخلفت مُخيّلة[87]، أو نابت نائبة، فاكتراثهم لأعراض الدهر بينهم تستُّر، لأنّ الحاضرَ منهم لا تُزعجه من أخيه الغيْبة، والغائب لا تَقِرُّ[88] عينه بالأوْبة، فالفُرْقة لا تورثهم وحشةً، والاجتماع لا يجدِّد لهم أنَسَةً. وربما وجدت تراضيهم بمخالفة ظاهرهم باطنَهم، قد أتيح لهم متعة بعشرتهم؛ لأنّ كلًّا منهم قد قدم التحرُّز من صاحبه، واستشعر الاحتراس منه، فليس يستودعه ما يخاف ضياعَه، ولا يأمنُه على ما يحتاج إلى الاهتمام به، وأعطاه مقدارًا من ظاهره، وقفتْ عليه عادته، وأسقطت مؤونة التحصيل عنه، ولبسته على عِلم به، فإنْ أظهر له جميلًا لم يغترَّ بظاهره، وإنْ وقف على غِلٍّ أو غِشٍّ لم يجدِّد له علمًا بباطنه، فليسَ يبدو له من أفعاله ما ينفِّره فيقطعه، ولا يغيب عنه منها ما يأمنه فيسكن إليه، ويخاف جنايةَ الاسترسال عليه، ولا يُبقيه في مشهده ومغيبه منه ما لا يعرفه، فيجريان في هذا الميدان مدةً طويلة متمتعَيْن بالمؤاكلة، والمشاربة، واللقاء والمحادثة.

وأخو الثقة يرمق الحركة، ويراعي اللحظة، ويتأول اللفظة، وإنْ ظهرت منكرة وقف عندها، وتعرّف سببها، وتبيَّن موقعها منِ العَمْد والخطأ، ومقدارها في الصِّغَر والكِبَر، وهل يقلُّ صغيرُها عن الْمُعاتبة، أو يبلغُ كبيرُها ترك المراجعة، ويُنزل الأمور بين هذين الطرفين منازلَها، ويعمل في

ما يستقرُّ عليه بما هو أصونُ لعهدته وإن كانت نفيسة؛ لأنّ أخا الثقة من الإخوان يمنح الأنس، ويبثّ ذاتَ النفس، ويُظهر العُجَر والبُجَر[89]، ويكشف الأسرار، ويخصُّ بخواص الأخبار، ويُدَّخر للنوازل، ويُفزع إليه في النوائب، فيعدُّ لِلْمَشْهد والمغيب، واليوم والغد، والْمَحْيا والْمَمَات، والنفس والعَقِب، ويُستظهر بإِخائه على الزمان، ويُعتضد به في الحدثان.

وإنَّما يستحقُّ ذلك كلّه ما نقيَ جيبُه، وسلم غيبُه، وخَلَص قلبُه، وصحَّ لُبُّه، ولوقوفه على هذه الغاية من الاستحقاق يراعيه من أودعه أجلَّ ودائعه، وجعله أفضلَ عدده، والحمدُ لله الذي جعلك مقدَّمًا في إخوان الصفاء، يثقُ الصديق بك، وتخفُّ المِحْنة عليه في مراعاة طويتك بصحة عقدك، وكرم عَهْدك، وتمسكك في وِرْدِك[90] وصَدَرك بعِصَم الدِّين التي تشتمل على المناقب، وتنفي المقابح والمعايب، وتؤدي صاحبها إلى فوز الأبد، وتحوز له النعيم المقيم، فتمم الله لك نعمه، وأوزعك[91] شكره، وأمدَّك بمزيده:

تنازعنا الوداد وكنتُ أجري

إذا بلغ المدى جَري السَّبُوقِ

فحازَ السَّبْقَ إسحاقُ بن سَعْدٍ

وخلَّفني بقارعةِ الطَّريقِ

الاستزادة على حسب الحرية، ومن لم يجد ألم الجفوة لم يعرف موقع المبرَّة، وأيام السلطان والقدرة غنيمة ذي النُّبل والهمَّة، تُعتقد بها المِنَن، وتُرعى فيها الْحُرَم، وتُبْنى المكارم لليوم والغد، والنفس والعقب، ولِي ما شهدته من مودةٍ صحيحةٍ موروثةٍ، وأسبابٍ شابكةٍ متقدِّمة، ورغبةٍ متجددةٍ، وأملٍ متأكدٍ، ولكلٍّ من ذلك حق وحرمة، وأنا شريك في النعمة بالهوى والنيّة، مطلق اللسان بوصف فضائلك في محافل ذي الشرف والحرية، كَبْتًا لعدوك الذي ليس بينه وبين الله عصمة، ونصرًا لوليّك وليِّ الدين والمروءة، ومعي معاضدة الأخ، وخدمة العبد، وطاعة اليد. والسلام.[92]

وقال أيضًا في فصل آخر: وإذا سلمت لي الحال القديمة بيننا التي كان العهد فيها باللقاء يتراخى، فإذا التقينا وَجَدناه على جِدَّته، وأعطى المفضول منّا - أعني نفسي- من آتى فاضلًا - أعنيك- من الإعظام والإجلال حقَّه، وسلك الفاضل بالإنصاف والتواضع سبيل فضله، لم أحفل بما يحدث بعد ذلك من إدراك أمل وفَوْته، ونيل طَلِبة وتعذرها.

وكتب عبدُ الله بن المعتز إلى أحمد بن يحيى الشيباني أبياتًا منها:

إنَّا على البعاد والتَّفرُّقِ

لَنَلْتقي بالذِّكْر إنْ لم نلتقِ

فأجابه: لم تَعْدُ ما في النفس، بلغَكَ الله أملك، ونحن وإنْ لم نَلْتَقِ كما قال رُؤْبَة:

إنّي وإنْ لَمْ ترني فإنَّني

أراكَ بالغيب وإنْ لَمْ تَرَني

أخوك والراعي لِمَا استرعَيْتَني

ولكني أحذر عليك، فإنّه لا تخفى محبَّتي إليك، ومَن لم يحذر فقد ضيَّع الْحَزم، وأنا أسأل الله أنْ يجعل عليك واقيةً برحمته.

أنواع الأصدقاء

اعلم أنَّ الشجر يتفاضل في الثمر، فربَّ شجرةٍ طيبةِ الْحَمْل قليلتُه، وأُخرى خبيثةِ الحمل كثيرتُه، وكذلك العُلماء، فلا يمنعك من عَالِم قلةُ علمه إذا كان نافعًا، ولا يَدعونَّك إلى عِالِمٍ كثرةُ عِلمه إذا كان ضارًّا، وعليكَ بحسن الاقتباس، والصبر على الناس، فإنك إنْ كنتَ لا تصحب إلَّا المهذَّبين من أهل العقول، ولم تصبر من الناس على الفضول، عدمتَ الحِلْم، ونسيتَ العِلم.

واعلمْ أنَّ في الناس حكمة، ومجالستهم تجلو بعض الظُّلمة، فاحتملهم على المخالفة وتمويه المصادقة، واقتبس منهم المحاسن، وتجافَ عن المساوئ، واعلم أنَّ الأخلّاء ثلاثةُ أصناف: فرع بائن من أصله، وأصل متَّصل بفرعه، وفرع ليس له أصل. فأمّا الفرعُ البائن من أصله فإخاءٌ بُنِيَ على مودّة ثم انقضت فحافظ على ذِمام الصُّحبة. وأمّا الأصل المتّصل بفرعه فإخاءٌ أصله الكرم،

وأغصانه الهوى. وأمّا الفرع الذي ليس له أصل فالمموّه الظاهر الذي ليس له باطن. ولهذه الصنوف علامات تدلّ عليها هذه الحالات.

ومن الإخوان كالجوهر، منه مموّه مَصْنُوع، وبعضُه خالصٌ مطبوع، فاعْرفِ الرجالَ بالْخَبَر، كما تسبر الجوهر بالبَصَر. واعلم أنّ ثِقات الإخوان، بقدر ما يستوجبون من الائتمان، فإنّ ميزان الكرام عادل، وصَاعَهم كامل،يوفّيان الحالات فروضها، ولا يَبْخَسانِها حقوقَها، فلو بلغت لرجل فوق قسطه في الإخاء حُفْت على ذي الفضل، ولو قصَّرت بآخر عن الوفاء أَزْرَيْتَ بأهل العدل.

واعلم أنّ لأهل الفضل حظوظًا مقسومة، ومنازلَ معلومة، بعضُها أشرفُ من بعض، ولكلّ منزلةٍ حِمَاها، لهم الفعال فليست تصلح إلّا لهم. واعلم أنّ أبناء الكرام بمنزلة سيل الغمام، يُنسبون إلى الكرم ما لم يبلهم الخبر، كما يُنسب الغَيْثُ إلى المنفعة ما لم يَبْدُ له ضرر، فإذا بلوا حُمد المحمود، وذمَّ المنكود.

قال أبو الربيع: ما إنْ بلوتُ أحدًا إلّا ردَّني إليك ابتلاؤه، ولا قفوتُ أثرًا إلّا عطفني عليكَ اقتفاؤه، ولئن امتحنتَ سريرة قلبي بالشكر على إحسانك، كما امتحنتَ عزيمة رأيي بالصبر على حِرْمانك، لتهجمن بك شهودٌ من ظاهر فعالٍ على عيونٍ تُبصرُ بها باطنَ وفاءٍ.

وإن تحملني حفاظك، وتلبسني ذمامك، ويشتمل عليَّ وفاؤك، وينفعني اليوم ما أسلفت فيك بالأمس، أكنْ وكيلًا لسمعك في قلبي، وأمينًا لعَيْنك عليَّ، فإنّي خفيفُ المؤونة، لطيفُ المعونة، لا قابلٌ غنمًا، ولا سائلٌ أكلًا، ولا ساخطٌ منك منزلةً فُوَيْق العامة، ودُوَيْن الخاصة، ما لم ترفعْني فوقَها، وتوجبُ لي ضعفها.

ختـــام

قد تكرَّر اعتذاري من طول هذه الرسالة، هذا وكان ظنّي في أولها أنّها تكون لطيفةً خفيفةً، يسهل انتساخُها وقراءتُها، فماجَتْ بشجون الحديث، وروادفَ من الطيِّب والخبيث، فاقبلْ حاطك الله هذا العذر الذي قد بدأتُه وأعدتُه، ونشرتُه وطويتُه، على أنّك لو علمتَ في أيّ وقت ارتفعتْ هذه الرسالة، وعلى أيِّ حال تَمَّتْ، لتعجَّبتَ، وما كان يقلُّ في عينك منها، يكثرُ في نفسك، وما يصغرُ منها بنقدك، يكبرُ بعقلك.

واللهَ أسألُ خاتمةً مقرونةً بغنيمة، وعاقبةًمُفْضيةً إلى كرامة، فقد بلغتْ شمسي رأس الحائط، والله أستعين على كلِّ ما هَمَّ النفس، ووزَّع الفكر، وأدنى من الوسواس، إنّه نِعْمَ المعين، على أُمور الدنيا والدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلواته على نبيِّه المصطفى محمَّدٍ وآله الطّيبين، الطّاهرين أجمعين، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.



1. الجعبة: كنانة النَّشَّاب. ↑

2. الصَّيمرة: اسم لموضعَيْن أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدَّة قرى تسمّى بهذا الاسم، والثاني بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان. ↑

3. التُّنَّاء: من تنأ تنؤًا بالمكان أقام به فهو تانِئ. ↑

4. أمرس: حبل الكرة أعاده إلى مجراه. ↑

5. البرحاء: الشدة والأذى والشر. ↑

6. المحض: الخالص الذي لم يخالطه غيره من اللبن وغيره. المذق: اللبن الممزوج بالماء. ↑

7. آمت المرأة من زوجها أيْمَةً وأيمًا وأيومًا: فقدته، وكذا الرجل من امرأته. وتأيّم الرجل وتأيّمت المرأة: إذا مكثا زمانًا لا يتزوَجان. ↑

8. بوائقهم جمع بائقة وهي الداهية. وفي الحديث: "لا يدخل الجنّة من لا يأمن جارُه بوائقه"، قال قتادة: أي ظلمه وغشمه. ويقال: فلان كثير البوائق أي الشرور. ↑

9. صرمت أخي وصارمته وتصارمنا، وبيننا صُرْمٌ وصريمة: قطيعة. ↑

10. الشِّسْع: قبال النعل وهو زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها. ↑

11. لا يهمك: لا يهيدنَّك هذا الأمر: لا يزيلنَّك، من هاده يهيده إذا حركه. يقال: "هِدْهُ يا رجل" أي أزله عن موضعه. ↑

12. توسم الشيء: تخيَّله وتفرَّسه وتعرَّفه، يقال: "توسَّمت فيه الخير" أي تبينت فيه أثره. ↑

13. الحدد: الكذب والباطل. ↑

14. كلح وجهه كُلوحًا وكُلاحًا: تكشر في عبوس. ↑

15. الرزدق: الصفّ من الناس، والسطر من النخل. ↑

16. هي الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. ↑

17. الممالحة: تبادل الطرف والملاحة. ↑

18. المعاقرة: عاقر الشيء لازمه وأدمن عليه. ↑

19. الإلف: الألفة وهي الصداقة والمؤانسة. ↑

20. العبق: انتشار رائحة الطيب. ↑

21. الخالصة: العشرة والمودة الصافيتان. ↑

22. استوسق: اجتمع، واستوسق لك الأمر: أمكنك، والسرائر: مفردها سريرة وهي السرّ. ↑

23. انقعص: مات مكانه. وانقعص الشيء: انثنى. ↑

24. نكص: تراجع واحجم. ↑

25. النصاب: الأصل والمرجع. ↑

26. النفل: ما تفعله مما لم يُفرض ولم يجب عليك فعله، ما طلب من الإنسان زيادة على الواجبات والفرائض. ↑

27. احتسب عليه الأمر: أنكره عليه. ↑

28. متواخٍ: متناسب. ↑

29. سفق: لطم. والسفقة: اللطمة. وسفق الباب: ردَّه ومثله انسفق. ↑

30. الداهية: الأمر العظيم والأمر المنكر. ↑

31. الشُّبْكة: (بضم الشين) القرابة يقال: "بينهما شبهة سبب لا شبكة نسب". ↑

32. اللحمة: القرابة والجمع لُحَم. ↑

33. الخِلة: المصادقة والإخاء. ↑

34. الذُّحول: مفردها ذَحْل: الثأر، وقيل العداوة والحقد، وقيل طلب المكافأة بجناية جنيت عليك أو عداوة أوتيت إليك. ↑

35. مسوك: مفردها مَسْك: الجلد وخص بعضهم به جلد السخلة، ثمّ كثر حتى سمّي كل جلدٍ مسكًا سمّي به لأنه يمسك ما وراءه من اللحم والعظم. ↑

36. القديد: اللحم المقدّد. ↑

37. المخبر: العلم بالشيء أو إدراكه بالخبر أو الاختبار لا بالنظر. والمخبر خلاف المنظر. ↑

38. زُبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة. ↑

39. ألوط: أعلق. ↑

40. العُجر: مفردها عُجرة وهي العقدة في الخيط والعصا وعروق البدن ونحوها يقال: "اذكر عجره وبجره، أي عيوبه أو أحزانه. والبُجر: مفردها بجرة وهي السرَّة"، والوجه، والعيب. ↑

41. الفرط: الحين، تقول: آتيك بعد فَرْطٍ أي بعد حين، ولقيته في الفرط بعد الفرض أي في الحين بعد الحين. ↑

42. استقش النبات: يبس. ↑

43. غمَّد وتغمَّده: ستر ما كان. ↑

44. الغرارة: الفعلة وحداثة السن. ↑

45. كلف به: أحبّه حبًّا شديدًا وأولع به فهو كَلِف. والكِلْف: الرجل العاشق. ↑

46. الشغف: أقصى الحب، والمشغوف هو المجنون حبًّا. ↑

47. تيَّمه الحب: عبّده وذلَّله. ↑

48. دَنِف المريض: ثقل ودنا من الموت، وكذلك العاشق. ↑

49. شجاه الأمر: أحزنه، وشجي الرجل يشجى شجًا: حزن. ↑

50. رنّق الطائر: خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر. ↑

51. اغدودق المطر: كثر قطره، وعين الماء: غزرت وعذبت: وماء مغدودق: كثير. ↑

52. اقتبل الرجل: صار عاقلًا وكيِّسًا بعد أن كان أحمقًا. ↑

53. العادية: الظلم والشر، وكذلك الحدة والغضب. ↑

54. بثّه ما في نفسه: كاشفه به، وباثّه السر: أظهره له: ويقال: "وكانت بيننا مباثة ومنافثة". ↑

55. الكَل: الثقل، ويطلق على الواحد وغيره، وبعض العرب يجمع المذكر والمؤنث على كلول. ↑

56. الاستنابة: استنابه استنابةٌ: طلبه نائبًا له. ↑

57. الضَّراء: الزمانة والشدة والنقص في الأموال والأنفس، وهي نقيض السَّرّاء. ↑

58. البأساء: الشدة والمشقّة. ↑

59. قصد: مستقيم. ↑

60. خصف النعل: أطبق عليها مثلها وخرزها بالمِخْصَف وهو مخرز الإسكاف. ↑

61. بوائق: مفردها بائقة، وهي الداهية. ↑

62. سرى يسري: سار في الليل. ↑

63. الأليف: الصديق الموآنس. ألفه ألفًا: أنس به وأحبه. والاسم الإلفة. ↑

64. القح: (بضم القاف) الخالص من اللؤم والكرم وكل شيء، ويقال: أعرابي قح بيِّن القُحوحةوالقُحاحة، خالص عريق في البداوة وكذا لئيم قحّ وكريم قحّ وعبد قحّ والجمع أقحاح. ↑

65. مانه يمونه مونًا: احتمل مونته وقام بكفايته فهو مائن. ↑

66. يخرصُك. خرص: كذب والخرَّاص: الكذَّاب. ↑

67. نقع الماء فلانًا: أرواه. الغُلَة: العطش، وقيل شدته، وقيل حرارته. ↑

68. بضع: ما بين الثلاث إلى التّسع، وبضع الشيء: قطعه، والبضعة: القطعة من اللحم. ↑

69. آدى على فلان: أعاده وأعانه. ↑

70. القسم: الخُلق والعادة. الوسم: العلامة. ↑

71. وَجَد به وَجْدًا: أحبَّه. ↑

72. الخفض: الدعة وسعة العيش. ↑

73. العبق: رائحة الطيب المنتشرة. ↑

74. صقل صقلَا وصقالَا الشيء: جلاه وملسه وكشف صدأه. ↑

75. ذكت النار تذكو ذكُوًا: اشتدَّ لهبها، وأذكى النار إذكاءً: أوقدها. ↑

76. عياب: مفردها عيبة، وهو الزنبيل من أدم أو ما تجعل فيه الثياب، كالصندوق. صفرت: خلت. ↑

77. الملاحاة: المنازعة ومنه المثل: "من لا حالك فقد عاداك". ↑

78. النافلة: ما تفعله مما لم يُفرض ولم يجب عليك فعله. يقال: هو كثير النوافل أي كثير العطايا والفواضل. ↑

79. الإبريز من الذهب: خالصه. ↑

80. لاحاه ملاحقاةً ولحاءً: نازعه. وفي المثل: "من لاحاك فقد عاداك". وتلاحى القوم تلاحيًا: تلاعنوا وتلاوموا. ↑

81. المعاير: المعايب. ↑

82. المقاوم: مفردها قوم، وقوم: الإقامة. ↑

83. هجَّن الأمر: قبَّحه وعابه. ↑

84. الرقبة (بكسر الراء): الحراسة والتحفظ ↑

85. الوسْع (بتثليث الواو): الجدة والطاقة. ↑

86. تاق إليه تَوْقًا وتؤوقًا وتياقة وتوقانًا: اشتاق إليه. ↑

87. الْمُخيّلة والمخيّل: السحابة التي تحسبها ماطرة. وكذلك المخايل من السحب المنذرة بالمطر كقول مروان بن أبي حفصة: "إن أخلق الغيث لم تخلف مخايلُه". ↑

88. قرَّت عينْك بردت سرورًا وجفَّ دمعها، أو رأت ما كانت متشوقة إليه. ↑

89. العُجر مفردها عُجرة وهي العقدة في الخيط والعصا وعروق البدن. البُجر: مفردها بجرة وهي السُّرَّة ويقال: ذكر عجره وبجره: أي عيوبه. ↑

90. ورد يرد ورودًا الماء: أشرف على الماء خلاف صدر. ↑

91. أوزع فلانًا بالشيء إيزاعًا: أغراه به. ↑

92. قرَّت عينُك بردت سرورًا وجفَّ دمعها، أو رأت ما كانت متشوقة إليه. ↑

Table of Contents

Start